

الدرءات



مهرجان القراءة للجميع

2000



Bibliotheca Alexandrina

0137758



المختار من أجمل

القصة العالمية

المختار من أجمل
القصص العالمية

اسم العمل الفني : ذات الرداء الأخضر التقنيه : زيت على تول

مقاس العمل : ٦٥ × ٥٥ سم ملكية خاصة

هنرى ماتيس (١٨٦٩ - ١٩٥٤)

فنان، مصور وحفار فرنسى شديد التجديد، تتكون لوحاته من مساحات كبيرة، تعتمد الألوان الساطعة الزاهية التى يحوطها بلون قاتم، وهو ينظم العناصر المختلفة للتعبير عن المشاعر، ويربط بين الأشياء المتناثرة ليبرز أهمية كل تفصيلىة. وقد صار زعيماً لحركة الفوفية(*). اهتم بالحفر وتقنية الورق المقصوص، وهو أعظم مؤثر فى كثير من المصورين المحدثين. كما ساهم بجهد عظيم فى خلق لغة الشكل، بالإضافة إلى تجديده الملحوظ فى فن الإعلان.

محمود الهندى

المختار من أجمل القصص العالمية

ترجمة

د. رشاد رشدي د. محمد القصاص

د. محمد عناني د. ماهر شفيق فريد

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

د. محمد عناني



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الروائع)

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

المختار من أجمل

القصص العالمية

ترجمة: د. رشاد رشدي

د. محمد عناني

د. محمد القصاص

د. ماهر شفيق فريد

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التي أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» في مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة»، والذي فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذي كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفي مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التي أصدرت فى سنواتها الست السابقة (١٧٠٠)، عنواناً فى حوالى (٣٠) مليون نسخة لاقى نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى (٣٠٠) ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرخان

تصدير

هذه مجموعة مختارة من أجمل القصص القصيرة العالمية المترجمة إلى العربية بأقلام بعض أساتذة الأدب المتخصصين الذين يمثلون جيلين ، الجيل الأول هو جيل الدكتور رشاد رشدي والدكتور محمد القصاص ، والجيل الثاني هو الجيل الذي ينتمى إليه كاتبها هذه السطور ، ونحن نهدي هذه المجموعة إلى ذكرى الجيل الأول - جيل الأساتذة الذين أرسوا أسس النقد الفنى للقصة القصيرة الحديثة والمعاصرة ، وعلى رأسهم رشاد رشدي ، الذي كان الرائد بلا جدال فى هذا المجال ، ولذلك فترجماته تحظى بنصيب الأسد فى هذه المجموعة ، التى تتوقف فيها عند النصف الأول من القرن العشرين ، وهى مرتبة ترتيبا أقرب ما يكون إلى الترتيب الزمنى ، وهى متنوعة فى الأسلوب والمنهج والبناء ، كما تتميز المجموعة بتنوع اللغات التى ترجمت منها أى الآداب التى تنتمى إليها ، وسوف ننشر بإذن الله مجموعات أخرى تمثل الموجات الفنية التالية التى مر بها هذا الفن الأدبى الحديث ، عسى أن يجد القارى العربى فيها الامتداد الفنى لما وضعه الرواد من أسس وما أرسوه من

د. سمير سرحان

د. محمد عنانى

المختار من أجمل
القصص العالمية

١ - فى ضوء القمر

جى دى موباسان

اكتسب الأب (مارينيان) بحق اسم «جندى الله» . كان قسا طويلاً نحياً متعصباً إلى حد ما . ولكنه كان عادلاً وذا نفس متسامية وكانت معتقداته ثابتة لا تتغير ولا تتبدل فه يعتقد أنه يفهم بالله فهماً واعياً كاملاً وأنه محيط بخطته ورغباته ونواياه .

وكان أحياناً يتساءل وهو يتمشى فى ممر حديقته فى البلدة الصغيرة التى يعمل فيها «لماذا فعل الله ذلك ؟» ويفكر جاهداً ويرضى عن نفسه فى أغلب الأحيان إذ يجد الجواب . ولم يكن الأب «مارينيان» من ذلك النوع من الرجال الذى يهمس فى خشوع . «إن سبلك ياربى أعظم من أن تدركها مدارك الرجال» بل كان يقول «أنا خادم الله وعلى أن أعرف السبب فى أفعاله أو أن أتبين السبب إن لم أعرفه » .

ونخيل إليه أن كل شئ فى الطبيعة قد خلق بمنطق مطلق جدير بالإعجاب ، أن هناك دائماً توازناً بين الأشياء ومسبباتها ، فالشروق وجد

ليبعث البهجة في نفس الإنسان وهو يستيقظ ، والنهار وجد لينضج المحاصيل ، والأمطار لترويهها ، والأمسيات ليستعد الإنسان للنوم والليل الحالك للنوم . والفصول الأربع تتفق تماماً وحاجيات الزراعة . وكان من المستحيل أن يداخل الشك الأب «مارينيان» في أن الطبيعة لا هدف لها . وأن كل كائن حي هو الذي وكيف نفسه وفقاً للظروف القاسية ، للفصول والأجواء والمادة ذاتها .

ولكنه كان يكره النساء . كان يكرهن من أعماقه ، ويحتقرهن بالغريزة ، وكان دائماً يردد قول المسيح «مالي ولك يا امرأة» وكان يضيف قائلاً إن الإنسان يستطيع القول إن الله ذاته غير راض عن المرأة التي خلقها . وكانت المرأة بالنسبة إليه هي الغاوية التي أغوت الإنسان الأول ومازالت تزاوّل نشاطها الملعون ، وهي المخلوق الضعيف الخطير الذي يسبب قلقاً خفياً . وكان يكره روحها المتعطشة إلى الحب أكثر مما يكره جمالها المسموم . وكثيراً ما شعر بحنان النساء يداهمه . فيضيق بذلك الحب الذي ينتفض دائماً أبداً في صدورهن رغم أنه يعرف أنه منه في حصن حصين .

. وكان يعتقد أن الله خلق المرأة لتغوى الرجل وتختبره وأن على الرجل ألا يقربها إلا وهو مسلح بالحرص الذي يتسلح به وهو مقبل على كمين ، فالمرأة في الواقع ليست إلا مصيدة بذراعيها الممدودتين وبشفتيها المفتوحتين في انتظار الرجل .

وكان الأب «مارينيان» لا يحترم إلا الراهبات اللاتي جردهن القسم من الهوى ، ومع ذلك كان يعاملهن معاملة قاسية . إذ يلمح هذا الحنان الخالد الذي يخفق ، حنى فى أعماق هذه القلوب الطاهرة يخفق دائماً ، ويخفق حتى له وهو القس .

وكانت له ابنة أخت تعيش مع أمها فى منزل صغير قريب من منزله ، وكان قد صمم على أن يجعل منها راهبة . وكانت رقيقة خفيفة وتتعمد إغاظته باستمرار . وعندما يعظ تضحك ، وعندما يغضب تقبله فى حرارة وتضمه إلى قلبها بينما يسعى هو بلا وعى إلى تخليص نفسه من بين ذراعيها ومع ذلك كانت تلك الضمة تثير فى نفسه إحساساً حلوا ، كانت توقظ فى قلبه ذلك الشعور الراقد فى أعماق كل رجل .

وكثيراً ما حدثها عن الله ، عن ربه ، وهو يمشى إلى جوارها فى الحقول ونادراً ما أنصتت إليه . كانت تنظر إلى السماء وإلى العشب وإلى الزهور وعيناها تلتمعان بفرحة الحياة وكانت تجرى أحياناً لتمسك بفراشة ثم تعود بها وهى تصيح «أنظر أنظر يا خالى كم هى جميلة ، بودى أن أقبلها» وكانت هذه الرغبة من جانب الفتاه فى تقبيل الفراش والزهور تزعج الأب وتضايقه وتثيره فقد رأى فيها دليلاً على ذلك الحنان الدائم الذى ينبض فى قلب كل امرأة .

وفى يوم من الأيام أخبرت مدبرة البيت الأب «مارينيان» أن ابنة أخته قد أتخذت لنفسها عشيقاً .

وعانى الأب إحساساً مؤلماً . وقف مختنقاً والصابون يغطي وجهه
وهو يحلق وعندما استعاد القدرة على الكلام صاح :
* كذب كذب . . أنت تكذابين يا «مالينا» .

ولكن المرأة القروية وضعت يدها على قلبها وقالت .

* ليعاقبنى الله أن كنت أكذب يا سيدى القس أنها تذهب إليه كل ليلة
بعد أن تنام أختك . وهما يتقابلان بجانب النهر ، وما عليك إلا
أن تذهب إلى هناك ما بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل وستراها
بعينيك .

وتوقف الأب عن حك ذقنه وبدأ يذرع الحجرة بسرعة كما يفعل
عندما يستغرق فى تفكير عميق . وعندما حاول أن يكمل حلقة ذقنه
جرح نفسه ثلاثة جروح امتدت من الأنف إلى الأذن .

وظل طول اليوم ساكناً وقد امتلأ غضباً وثورة فإلى جانب كرهه
الطبيعى للحب شعر أن كرامته قد أهينت كأب ومعلم وكراعى للنفوس ،
شعر أن طفلة قد خدعته وسخرت منه وسلبته شيئاً يملكه . شعر بهذا
الحزن الأنانى الذى يشعر به الوالدان حين تخبرهما ابنتهما أنها قد
اختارت لنفسها زوجاً دون مشورتها . وضد هذه المشورة .

وبعد العشاء حاول أن يقرأ قليلاً ولكنه لم يستطع أن يكيف نفسه
 للقراءة وازداد غضباً على غضب . عندما أعلنت الساعة العاشرة أخذ

عصاه وهى عصا غليظة من خشب البلوط يحملها عادة حين يخرج ليلا لزيارة المرضى . وابتسم وهو يرقب العصا الغليظة وقد استقرت فى قبضة يده القوية . وأدار العصا فى الهواء مهدداً ثم رفعها فجأة وهو يجز بأسنانه وانهاى على كرسى فحطم ظهره .

وفتح باب بيته ليخرج ولكنه توقف عند بابه مسبهوتا . كان بهاء القمر رائعاً روعة نادرة ، واستجابت روحه السامية لما حوله وشعر فجأة أن جمال الليل الشاحب وجلاله وبهائه قد حرك قلبه . وفى حديقته الصغيرة التى سبحت فى ضياء باهت عكست أشجار الفواكه ظلالها على ممر الحديقة، أغصان رقيقة من الخشب تكسوها الخضرة من الزهور المتسلقة على الحائط انبعثت رائحة لذيدة حلوة علقنت كروح عطرة بالليل الدافئ الصحو .

وبدأ يتنفس تنفساً عميقاً . يحتسى الهواء كما يحتسى السكر الخمر . وسار ببطء مسحوراً مبهوراً حتى كاد ينسى إبنة أخته . وعندما وصل إلى بقعة عالية وقف يرقب الوادى بأجمعه وقد امتد تحت بصره وبهائه القمر يحتضنه ، وسحر الليل الهادئ الحنون يخرقه ، ونقيق الضفادع يتردد فى نغمات قصيرة ، والبلايل عن بعد أشجاها القمر فتغنت واختلط غناؤها فى موسيقى لا تثير الفكر وإنما تثير الأحلام .

واستمر الأب يمشى وهو لا يعرف لم تخلت عنه شجاعته فقد شعر كما لو كان التعب والإرهاق قد تسربا إليه ، وود لو يجلس أو يتوقف حيث هو ليحمد الله على ما صنعت يداه .

وتحت بصره . حول منحني النهر امتد صفان طويلان من الأشجار
وفوق شطى النهر سبحت سحابة خفيفة بيضاء تخللتها أشعة القمر
فأضفت عليها لون الفضة وبريقها .

وتوقف الأب من جديد وقد نفذ إلى أعماقه شعور قوى متزايد
واستولى عليه شك وقلق وشعر أن سؤالاً من الأسئلة التي تلح عليه
أحياناً تدور إذ ذاك فى عقله .

لماذا فعل ذلك الله! إذا كان الليل للنوم للاغفاء ، للراحة ، للعدم
، فلماذا كان أكثر سحراً من النهار ، وأحلى من الغروب والشروق ؟
وهذا الكوكب البطيء الخلاب الذى يغلب جماله على جمال الشمس ،
والذى يضىء للكائنات بنور رقيق يستعصى على الشمس . . . هذا
الكوكب لم يشرق لينير الظلال ؟ ولم لا يأوى البلبل الصداح إلى النوم
كغيره من الطيور ولم هذا الحس الذى يتسلل إلى الروح وهذا الخمول
الذى يغزو الجسد ؟ ولم هذا الوشاح الذى ينسدل على الأرض ، وهذا
السحر الذى لا ينعم به الإنسان إذ يأوى إلى فراشه فى الليل؟ لمن خلق
الله هذا الجلال ، هذا الفيض من الشعر الذى يتدفق من السماء إلى
الأرض ؟ ولم يجد الأب لهذه الأسئلة التى ثارت فى نفسه جواباً .

ولكن إذ ذاك فى طرف المرعى ظهر ظلان يمشيان جنباً إلى جنب
تحت الأشجار المتعانقة الغارقة فى الضباب الفضى .

وكان الرجل هو الأطول ، وقد التفت ذراعه حول عنق حبيبته ومن وقت لآخر كان يقبلها في جبينها . وفجأة دبت الحياة في الطبيعة المهجورة التي أحاطت بهما وكأنها إطار إلهي صنع خصيصاً من أجلهما . وبدأ الشخصان وكأنهما كائن واحد . الكائن الذي خلق من أجله الليل الهادئ الساكن ، واقتربا من القس كإجابة حية على سؤاله ، إجابة بعث بها إليه ربه الأعلى .

وقف الأب مصعوقاً وقلبه ينبض بشدة . وتمثل قصص الإنجيل كقصة حب روث Ruth وبوز Boaz ، وإرادة الله تتحقق في القصص الجليلة التي وردت في الكتاب المقدس . وفي رأس القس ترددت آيات نشيد الإنشاد ، الصرخات الوالهة ونداء الجسد ، والشعر الجميل في هذه القصيدة التي تتأجج حناناً وحباً . وقال لنفسه « ربما خلق الله مثل هذه الليلة إطاراً لمثله الأعلى . . . لحب الإنسان » .

وتراجع بعيداً عن الحسيبين اللذين تقدما يدا في يد . . . كانت فعلا ابنة أخته . وكان الأب «مارينيان» يتساءل الآن . . . ألم يكن على وشك الخروج على طاعة الله ؟ فلو لم يكن الله يرضى عن الحب لما أحاطه بمثل ذلك الإطار من الجمال .

وهرب الأب مبهوراً وهو يكاد يشعر بالخجل ، كما لو كان قد اجتاز هيكلًا مقدسًا لاحق له في اجتيازه .

٢- توان

جى دى موباسان

فى دائرة قطرها عشرة فراسخ كان كل أمرئ يعرف توان ، توان البدين ، «توان البراندى ، أنطوان ما شبليه مالك تورن فان .

كان قد جلب الشهرة إلى هذه القرية المدفونة فى أعماق الوادى ، والمنحدرة نحو البحر ، كانت ضيعة فلاحية فقيرة مكونة من اثني عشر بيتاً نورماندياً تحديق بها الخنادق وتكتنفها الأشجار . وكانت البيوت مكومة فى تلاصق ، فى هذه المهواة المغطاة بالشجيرات ، وراء منحنى التل ، مما أضفى على القرية اسم تورن فان ، ومثلما تتوارى الطيور فى الأخاذيد ، عند العاصفة ، لاح أنهم قد بحثوا عن ملجأ فى هذا التجويف، ملجأ من رياح البحر الملحة العنيفة ، التى كانت تقرض وتحرق كالنار ، وتذوى وتدمر كهبات الشتاء .

لاح أن الضيعة كلها ملك لأنطوان ماشبليه الذى كان - إلى ذلك - كثيراً ما يدعى توان ، وتوان براندى - بسبب طريقته فى الكلام كان يستخدمها على نحو مستمر : كان يقول «إن براندى» خير براندى فى فرنسا» .

وكان برانديه هو الكونياك ، ليكن ذلك مفهوماً . ولمدة عشرين عاماً ظل يروى الإقليم بكونياكه ، وحين كان يقدمه لعملائه كان من عادته أن يقول : «إنه يذفئ المعدة ويجلو الرأس . ليس ثمة ما هو أفضل منه لصحتك يابنى» . كان يدعو كل امرئ «يابنى» رغم أنه لم ينجب قط .

آه نعم . كان كل امرئ يعرف توان أضخم رجل فى المقاطعة أو حتى فى الإقليم ، وكان بيته الصغير يلوح ، على نحو مضحك ، أصغر من أن يحتويه وعندما كان يرى واقفاً على باب داره ، حيث كان يقضى القسم الأكبر من نهاره ، كان المرء يتساءل: كيف أمكنه أن يدخل مسكنه ، ولكنه كان يدخله فى كل مرة يتقدم إليه فيها عميل ، لأنه كان قد أصبح من حق توان براندى أن يفرض كأساً صغيرة على كل من يشربون فى بيته .

كان مقهاه يحمل على لافتته أسطورة «موعد الأصدقاء» وكان توان العجوز - بحق - صديق كل الإقليم . كان الناس يأتون من فيكامب ومونتيفيليه كى يروه ، ويشربوا معه ، ويسمعوا قصصه . ذلك أنه كان بوسع هذا الرجل الضخم الرضى الطبع أن يضحك الموتى . كان بوسعه أن يمزح دون أن يجرح أحداً ، وأن يغمز بعينه تعبيراً عما لا يجرؤ على التفوه به ، وأن يقرص ضلوع محدثه فى نوبة من نوبات المرح ، بحيث يجبره على الضحك ، رغماً عنه . ثم كان من الأمور الشائقة أن تراه وهو يشرب . كان يشرب كل ما يقدم إليه ، من كل إنسان ، وثمره فرحة فى

عينه الشقية ، فرحة مصدرها متعة مزدوجة : متعة تسلية نفسه أولاً ، ومتعة أن يكوم المال على حساب أصدقائه بعد ذلك . وكان أوغاد المجتمع يتساءلون : لم لم ينجب توان أطفالاً . وذات يوم وجهنا إليه هذا السؤال ، فأجابهم بغمزة شقية : «إن زوجتي ليست جذابة بما فيه الكفاية لرجل فاتن مثلي» .

وكانت معارك توان مع زوجته العاطلة من الجمال مصدر متعة للشاربين ككونياكهم المفضل ، لأنهما ظلا يتشاجران طوال سنى حياتهما الزوجية الثلاثين ، وكان توان رضى الطبع فى هذا الموضوع ، بينما كانت زوجته تشتعل غضباً . كانت فلاحه طويلة تسير بخطوات طويلة أشبه بخطوات سائر على طوالتين ، وتحمل فرق جسمها النحيل المسطح رأس برمة قبيحة ناعبة . وكانت تقضى وقتها كله فى تربية الدواجن فى الفناء الصغير الذى يقع وراء المشرب ، وتعرف بنجاحها فى تسمين طيورها .

وعندما كانت أى سيدة من كبار نساء فيكامب تقيم وليمة لذوى المكانة ، كان من الضرورى لنجاح الوجبة أن تزين بطيور فناء دجاج الأم توان المشهورة .

بيد أنها ولدت بطبع شرير وظلت ساخطة على كل شئ . وإذا كانت غاضبة من كل إنسان ، كان غضبها منصباً على زوجها بوجه خاص . كانت تسخر من مرحة وشعبيته وصحته الطيبة وبدانته ، وتعامله بأكبر قدر من الأزدراء لأنه يحصل على المال دون أن يعمل من أجله

ولأنه فيما تقول يأكل ويشرب قدر ما يأكله ويشربه عشرة رجال عاديين .
وكانت تعلن ، كل يوم ، أنه لا يصلح إلا لأن يتناسل فى الأسطبل مع
الخنازير العارية التى يشبهها ، وأنه ليس إلا كتلة من الشحم تغطى لها
البطن . كانت تصرخ فى وجهه «انتظر قليلاً ، انتظر قليلاً ، سنرى
قريباً ما الذى سيحدث . إن هذه القرية الكبيرة ستنفجر كجوال من
الحبوب .

وكان توان يضحك حتى يهتز ككأس من الهلام ويرد وهو ينقر على
بطنه الجسيمة : «آه يادجاجتى العجوز . فلنرك وأنت تحاولين أن تجعلى
أفراخ سميئة مثلها» .

وإذ يشمر عن كفه يكشف عن ذراعه المفتول ، ويهتف «ألا ترين
الزغب وقد بدأ ينمو فعلاً؟» فكان العملاء يدقون بأيديهم على المائدة ،
ويتلوون سروراً ، ويضربون الأرض بأقدامهم ، ويبصقون على الأرض فى
بحران من البهجة .

إردادات العجوز غضباً وصاحت بأعلى ما تقدر عليه رثتها :

«فقط انتظروا قليلاً وسنرى ما سيحدث . سينفجر توانكم براندى
كجوال من الحبوب» .

واندفعت خارجة ، وقد جن جنونها غضباً من ضحك جمع
السكارى ، والحق أن توان كان أعجوبة للرأى ، فقد غدا بالغ البدانة

والحمرة ولهات الأنفاس . كان واحداً من تلك المخلوقات الضخمة التي يلوح أن الموت يسلى نفسه معها بالأعيب والمرح وضرب التهريج القاتل ، جاعلاً من عملية القضاء عليها شيئاً ملهويماً على نحو لا يقاوم . فبدلاً من أن يتجلى - مثلما يتجلى للآخرين - فى الشعر الأبيض والأطراف المنكمشة والغضون والضعف العام الذى يجعل المرء يقول وهو يرتعش : «يالله ، كم تغير !» كان يجد متعة فى أن يزيد توان سنة ، وأن يجعل منه هولة مضحكة ، ويضفى على وجهه حمرة ، ومنحه مظهر الصحة الفائقة ، بحيث غدت ضروب التشويه التى يمتحن بها سائر الكائنات باعثة على الضحك - فى حالة توان - ومسلية بدلاً من أن تكون منذرة بالشؤم وموضع رثاء .

«انتظروا قليلاً ، انتظروا قليلاً» . هكذا راحت الأم توان تتمتم وهى تنشر الحب فى فناء دواجنها ، «سنرى ما سيحدث» .

٢

وقد حدث أن أصيب توان بنوبة ووقع صريع ضربة شلل . حملوا العملاق إلى الغرفة الصغيرة ، المفصولة بحاجز ، فى آخر المقهى ، كى يتمكن من سماع ما يدور على الجانب الآخر من الجدار ، ويتحدث مع أصدقائه ، حيث أن عقله ظل صافياً ، بينما تمدد جسمه الضخم بلا حول ولا قوة . وأملوا ، وقتاً ، أن تستعيد أطرافه الضخمة بعض نشاطها ، ولكن هذا الأمل سرعان ما اختفى ، واضطر توان براندى إلى قضاء

نهاره وليله فى فراشه ، الذى ، لم يكن يسوى إلا مرة فى الأسبوع ، بمساعدة أربعة من أصدقائه كانوا يرفعونه من أطرافه الأربعة ، بينما تغير حشيته . وظل على مرجه ، ولكن بنوع مختلف من المرح : أشد تهيباً وأشد اتضاعاً ، وبذلك الخوف المشجى لطفل فى حضور زوجته التى كانت تؤنّبهِ وتصحّب طوال اليوم : «ها هو ذا يرقد ، البطن الكبير ، الكسول غير النافع ، القذر !» . هكذا كانت تصيح . ولم يكن توان يرد عليها بشئ ، وإنما كان يظرف بعينه فقط ، من وراء ظهر العجوز ، ويتحول فى فراشه ، وهى الحركة الوحيدة التى يمكنه القيام بها . كان يدعو هذا التغيير «التحرك نحو الشمال أو الحركة نحو الجنوب» وكانت تسليته الوحيدة الآن تنحصر فى الاستماع إلى المحادثات فى المقهى والاشتراك فى الكلام عبر الجدار . وعندما كان يتعرف على صوت واحد من أصدقائه ، كان يهتف «هالو يابنى . . أهدأ . . أنت ياسلستين ؟» . وكان سلستين مالوازيل يجيب : «أجل أيها الأب توان . كيف حال ركضك اليوم يا أرنبى الكبير ؟» .

فيجيبه توان : «ليس بوسعى أن أركض ياسلستين . ولكنى لا أنحف إن القشرة جيدة» . وسرعان ما يدعو رفاقه إلى غرفته ليأتنس بصحبتهم ، حيث أنه كان يؤلمه أن يراهم يشربون بدونه وكان يقول لهم إنه يحزنه ألا يتمكن من احتساء كونياكه معهم : «إنى لأستطيع احتمال كل شئ ، ولكن عدم قدرتى على الشرب معكم يحزننى يا أبنائى» .

وعند ذلك تظهر رأس البومة الناعبة : الأم توان ، فى النافذة وهى تقول : «انظروا انظروا إليه . . . هذا المتسكع الجسيم الثقيل الذى لا بد من أن يغذى ويغسل وينظف كخنزير !!!» .

وعندما كانت تختفى ، كان ديك أحمر الريش يجثم أحياناً على حافة النافذة ، وإذ ينظر حوله بعينيه المستديرتين المستطلعتين يطلق صيحة ثابتة . وأحياناً كانت دجاجتان ، أو ثلاث تتسرب ، تخذش الأرض وتنقرها ، وقد جذبها الفتات المتساقط من طبق الأب توان .

وسرعان ما هجر أصدقاء توان براندى المقهى إلى غرفته . وفى كل أصيل كانوا يثرثرون حول فراش الرجل الضخم . ورغم اضطرابه إلى ملازمة الفراش فإن هذا الوغد - توان - كان يسليهم ويجعل الشيطان ذاته يضحك ، هذا المرح ! كان ثمة أصدقاء ثلاثة يأتون كل يوم : سلستين مالوازيل وهو رجل طويل نحيف معوج البدن كجذع شجرة تفاح ، وبروسبر هورسلافيل وهو عجوز جاف ، ذو أنف كالعرسة ، خبيث ماكر كثعلب ، وسيزبريومبل الذى لم يكن ينبس بكلمة قط ، ومع ذلك يستمتع بالجلسة . أحضر هؤلاء الرجال خوانا من الفناء وضعوه عبر الفراش وكانوا يلعبون عليه الدومينو من الثانية بعد الظهر حتى السادسة . ولكن الأم توان كانت سرعان ما تتدخل : فلم تكن لتحتمل أن يسلى زوجها نفسه بلعب الدومينو فى فراشه . وفى كل مرة كانت ترى فيها اللعبة ، تثب إلى الغرفة ثائرة وتقلب الخوان وتأخذ الدومينو وتحمله إلى

المقهى معلنة أنه حسبها أن تغذى هذه الكتلة الضخمة من الشحم ولا تراه يسلى نفسه على حساب العاملين المجاهدين . وكان سلسطين مالوازيل يحنى رأسه أمام العاصفة ولكن بروسبرهورسلافيل كان يحاول أن يزيد من إنفعال العجوز التى كان يستمتع بنوبات غضبها . وحين رآها ، ذات يوم ، أشد غضباً من المعتاد قال لها «هالو أيتها الأم توان . . . أتعلمين ماذا كنت أفعل لو كنت مكانك ؟» .

فانتظرت منه تفسيراً ، وهى تثبت عليه عينيها الشبيهتين بعيني البومة ، واستمر قائلاً :

«إن زوجك الذى لا يفارق فراشه قط سخن كالموقد . قد كنت بحيث أجعله يفقس بيضاً» .

فظلت مبهوتة تظنه يمزح ، وهى تراقب وجه الفلاح الهزيل الماكر الذى مضى قائلاً :

«قد كنت بحيث أضع خمس بيضات تحت كل ذراع من ذراعيه فى نفس الوقت الذى تبدأ فيه الدجاجة الصفراء فى احتضان بيضها . . . وسيفقس البيض كله فى وقت واحد . . . وحين تخرج الأفراخ من القشر، أضع أفراخ زوجك تحت الدجاجة كى تربيها . سيجلب لك هذا بعض الدواجن أيتها الأم توان» .

ودهشت العجوز وسألته : «أيمكن هذا ؟» .

فمضى بروسبر قائلاً : «لم لا ؟ فما داموا يضعون البيض فى صندوق دافئ كى يفقس ، فإن من الممكن أن يوضع فى فراش دافئ» .
فتأثرت بهذا الاستدلال تأثراً عميقاً وخرجت رابطة الجأش متفكرة .
وبعد ثمانية أيام أقبلت على غرفة توان ، ومرولتها ملآنه بيضا ،
وقالت له : «قد وضعت لتوى عشر بيضات تحت الدجاجة الصفراء .
هاك عشرة لك ! احذر أن تكسرهما !» .

فدهش توان وهتف بها : «ماذا تعنين ؟» .

أعنى أن عليك أن تفقسها ، أيها العاطل غير النافع .

ضحك توان فى البداية . وعندما أصرت غضب ورفض فى عناد- أن يسمح لها بوضع البيض تحت ذراعيه الجسيمتين ، حتى تفقسه حرارتهمما .
ولكن العجوز المخيبة الأمل ثارت وأعلنت : «لن تجد كسرة تأكلها ما دمت ترفض أخذ هذا البيض - هاك ، سنرى ما سيحدث» .

كان توان قلقاً ولكنه لم يقل شيئاً حتى سمع الساعة تدق الثانية عشرة ، وعند ذلك نادى زوجته التى صاحت من المطبخ : «لا عشاء لك اليوم أيها العاطل الكبير !» .

وفى مبدأ الأمر ظن أنها تمزح ، ولكنه عندما وجدها جادة ، توسل وصلى وسب على التعاقب : استدار شمالاً وجنوباً . وإذ تولاه القنوط تحت وطأة آلام الجوع وروائح اللحم دق الحائط بقبضته الكبيرة إلى أن

أنهك ، فى نهاية المطاف ، وكاد يموت جوعاً فسمع لزوجته بإدخال البيض فى فراشه ، ووضعته تحت ذراعيه . وعند ذلك أعطته حساءه .
وعندما وصل أصدقاءه كالمعتاد ، ظنوا أن المرض قد اشتد بتوان ، فقد بدا متوتراً متألماً .

ثم شرعوا يلعبون الدومينو كالعهد بهم ، ولكن لاح أن توان لا يجد فى اللعبة متعة ، وإنما يمد يده على نحو بالغ الحرص وبعناية واضحة إلى الحد الذى يشكوا معه - على الفور - فى أن ثمة خطأ ما .

وسأله هورسلافيل : «هل ذراعك مربوطة ؟

فأجابه توان بضعف : «أشعر بثقل فى كتفى» .

وعلى حين غرة دخل شخص المقهى ، وتوقف اللاعبون كى يلقوا بأسماعهم . كان العمدة ومساعدته وقد طلبا كأسين من الكونياك ثم شرعا يتحدثان عن شئون الإقليم . وإذ راحا يتحدثان بنبرات خفيضة ، حاول توان أن يلصق أذنه بالحائط ، . وإذ نسى بيضه مال فجأة نحو الشمال فاستحال البيض إلى عجة . وإذ أطلق لفظه سباب دخلت الأم توان راكضة . وحين حدثت الكارثة التى وقعت ، كشفت عنه . ووقفت ، لحظة ، أشد غضباً - لاهثة الأنفاس - من أن تتكلم ، هى ترى منظر الكمادة الصفراء الملتصقة بخصر زوجها . وعند ذلك ، وهى ترتعش غضباً ، رمت بنفسها على المشلول وبدأت تضربه بقوة شديدة على

جسمه ، وكأنها تضرب ثيابها المغسولة على ضفاف النهر . أمطرته
بضرباتها بقوة وسرعة قارع طبل يدق طبلته .

اختنق أصحاب توان بالضحك والسعال والعطس والتفوه بعبارات
التعجب بينما راح الرجل المرتعب يتقى هجمات زوجته بالحرص اللازم
كيلا يكسر البيضات الخمس التي كانت مازالت على الجانب الآخر .

٣

هزم توان . اضطر إلى فقس البيض . كان عليه أن يهجر مسرة
الدومينو البرئية ، وأن يتخلى عن كل مجهود للتحرك شمالاً أو جنوباً ،
لأن زوجته كانت تحرمه من أى غذاء فى أى مرة يكسر فيها بيضة . رقد
على ظهره ، عيناه مثبتتان على السقف ، وذراعا ممتدان كالأجنحة ،
يدفىء لصق بدنه الضخم الأفراخ البادئة فى قشرها الأبيض . لم يكن
يتكلم إلا بصوت خفيض وكأنه يخشى الضجة خشيته الحركة ، وكثيراً ما
كان يسأل عن الدجاجة الصفراء فى فناء الدواجن التى كانت منهمكة فى
نفس عمله . كانت العجوز تتردد بين الدجاجة وزوجها ، وبين زوجها
والدجاجة ، وقد تملك تفكيرها وشغلها الأفراخ الصغار الآخذة فى
النضج : فى الفراش والعش . وما لبث أهل الإقليم ، الذين سرعان ما
سمعوا بالقصة ، أن جاءوا متطلعين جادين كى يعرفوا أخبار توان .
دخلوا على أطراف أصابعهم ، مثلما يدخل المرء غرفة مريض ، ويسألوا
بقلق :

«كيف الحال يا توان ؟» .

فكان يجيب : «عليها أن تفقس ، ولكن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً .
لقد تعبت من الانتظار . إنى أنفعل وأشعر برجفات باردة تركض على
طول جلدي» .

و ذات صباح دخلت زوجته ، وقد ارتفعت حالتها المعنوية كثيراً
وتساءلت : «لقد فقس الدجاجة الصفراء سبعة أفراخ . لم يكن هناك
سوى ثلاث بيضات فاسدة !» .

فشعر تـوان بقلبه يدق ، كم من البيض عساه يفقس ؟
وسأل بعذاب المرأة التي على وشك الولادة : «هل يتم الفقس
قريباً ؟» .

فأجابته المرأة - المعذبة بخوف الفشل - غاضبة :
«نأمل هذا !» .

وانتظرا .

وإذ رأى الأصدقاء أن وقت فقس تـوان قد أـزف ، اشتد قلقهم
بدورهم . كانوا يتحدثون عن الموضوع في البيت ، وجعلوا كل الجيران
على معرفة بتقدم الأمور . ونحو الثالثة ، أغفى تـوان . كان الآن ينام
نصف الوقت . ثم أيقظته فجأة دغدغة غير مألوفة تحت ذراعه اليسرى ،
فوضع يده على المكان بعناية وأمسك حيواناً صغيراً يكسوه زغب أصفر
راح يجاهد بين أصابعه . وكان انفعاله من الشدة بحيث صرخ : تاردا

الفرخ الذى جرى على صدره . وامتلاً المقهى بالناس . اندفع العملاء إلى الغرفة وأحاطوا بالفراش بينما أمسكت الأم توان - التى وصلت على أول صوت - بالفرخ بعناية ، إذ أوى إلى لحية زرجها . ولم ينبى أحد بكلمة . كان يوماً دافئاً من أيام أبريل ، وكان بوسع المرء أن يسمع - من خلال النافذة المفتوحة - نقيق الدجاجة الصفراء ، وهى تنادى أفراخها الحديثة الولادة ، وتمتم توان الذى كان يرشح عرقاً من الأنفعال والعداب «أشعر بأخر تحت ذراعى اليسرى» .

فغاصت زوجته بيدها الكبيرة النحيلة تحت أغطية الفراش ، واستخرجت فرخاً آخر بكل حرص القابلة .

ورغب الجيران فى رؤيته وتناقلوه من يد إلى يد ، وهم ينظرون إليه مرتعبين وكأنه ظاهرة طبيعية ، ولمدة عشرين دقيقة ، لم يفقس شئ آخر ، ثم خرجت أربعة افراخ من قشر بيضها فى وقت واحد . وأحدث هذا انفعالاً عظيماً بين المراقبين .

وابتسم توان سعيداً بنجاحه وبدأ يشعر بالفخر بهذه الأبوة الفريدة لم ير مثل هذا المنظر من قبل . كان رجلاً عجبياً حقاً ! وهتف توان : «هذا يصنع ستة ، اللعنة ! أى حفل تنصير سيكون هذا !» وخرجت ضحكة كبيرة من الجمهور . والآن زحف الناس آخرون إلى المقهى وملاؤا الباب بأعناقهم المشرببة وأعينهم المستطلعة .

وتساءلوا: «كم أنجب؟»

«ستة» .

وجرت الأم توان بالأفراخ الجديدة إلى الدجاجة التي انتصب ريشها - وهي تنق شاردة وبسطت جناحها كي تحمي صغارها الأخذين في التزايد .

وهتف توان : «وهذا واحد آخر» ولكنه كان مخطئاً ، فقد كانوا ثلاثة . كان هذا انتصاراً . . وكسر الأخير قشرته في السابعة مساء . لم يكن في بيض توان بيضة واحدة فاسدة . استراح وراح يهدى من الفرحة ، وأمسك بالمخلوقات الصغيرة الضعيفة يقبلها على ظهرها . وكان من الممكن أن يخنقها بعناقه . أراد أن يحتفظ بهذا الفرخ الصغير حتى اليوم التالي ، وقد حركه حنان الأمومة نحو هذا الكائن الذي منحه الحياة . ولكن العجوز حملته بعيداً ، مثلما فعلت بالآخرين ، دون أن تصغى إلى توسلات زوجها .

وعاد أصدقاء توان إلى بيوتهم مبتهجين ، يتحدثون عن الحدث في طريقهم .

وظل هورسلافيل بعد أن مضى الآخرون ، وإذا اقترب من أذن توان همس آه : استدعوني إلى أول يخنه . أليس كذلك ؟ «ولدى فكرة اليخنه أنار وجه توان وأجاب : «سأدعوك بالتأكيد يابنى .»

٣ - المدرسة

انطون تشيخوف

تركت العربية المدينة في الساعة الثامنة والنصف .

وكان الطريق العام جافاً ، وشمس أبريل الجميلة تبعث بأشعتها الدافئة ، ولكن الثلوج كانت مازالت متراكمة في الحفر وفي الغابات . وكان الربيع قد حل بصورة مفاجئة ولم يكد شتاء ذلك العام المظلم الطويل القارس ينتهى . ولم تر ماريا فاسيلفنا التي جلست في العربة فيما حولها شيئاً جديداً أو مثيراً ، فلا الدفء أثارها ، ولا الغابات الساكنة الشفافة التي غزتها أنفاس الربيع ، ولا أسراب الطيور السوداء تحلق فوق بقع من الماء أشبه بالبحيرات ، ولا السماء الرائعة العميقة عمقاً لا نهائياً التي تجعل الإنسان يتمنى أن يذوب فيها . فقد اشتغلت كمدرسة لمدة ثلاثة عشرة سنة ، وذهبت إلى المدينة خلال هذه السنوات الطويلة مرات لا حصر لها لتقبض أجرها ، وسيان لديها إن كان الزمن ربيعاً كما هو الآن أو خريفاً ممطراً أو شتاء ، وفي كل مرة لم تكن تتمنى سوى شيئاً واحداً، أن تنتهى الرحلة بأسرع ما يمكن .

وكانت تشعر كما لو كانت قد عاشت فى ذلك الجزء من الريف
أجيالاً وأجيال . مئات من السنوات . وخيل إليها أنها تعرف كل حجر
وكل صخرة فى الطريق من المدينة إلى مدرستها فماضيها هنا وحاضرها
وهى لا تستطيع أن تتصور لنفسها مستقبلاً آخر منفصلاً عن المدرسة عن
الطريق إلى المدينة والعودة منها ، العودة إلى المدرسة ومن المدرسة إلى
الطريق من جديد .

وكانت قد تخلصت من عادة التفكير فى الماضى ، ماضيها قبل أن
تصبح مدرسة ، وكادت تنسى هذا الماضى تقريباً ، كان لها فى يوم من
الأيام أب وأم ، وكانوا يعيشون فى موسكو فى شقة كبيرة بالقرب من
البوابة الحمراء ، ولكن لم يبق فى ذاكرتها من هذه الأيام سوى أشياء
غامضة كالحلم ، مات أبوها وهى طفلة فى العاشرة ، وماتت أمها بعده
بقليل . وكان لها أخ ضابط فى الجيش ، وفى البداية كانا يتراسلان ثم
لم يعد أخوها يجيب على رسائلها ، انقطع عن الكتابة . ولم يبق لديها
من ممتلكاتها القديمة سوى صورة لأمها ، ولكن هذه الصورة أصبحت
باهتة من رطوبة المدرسة ، والآن لا يمكن أن يتبين الإنسان منها شيئاً
سوى الشعر والحاجبين .

بعد أن قطعت العربة عدة أميال استدار السائق سيمون العجوز وقال :
- «لقد قبضوا على أحد الكتبة الحكوميين فى المدينة ، ويقال أنه
اشترك وبعض الألمان فى قتل اليكسيف العمدة فى موسكو» .

- «من قال لك ذلك؟» .

- «لقد سمعتهم يقرأون الخبر في الجريدة ، في حانة إيفان إيونوف .
ومن جديد ساد السكون مدة طويلة ، وفكرت ماريا فاسيلينا في
مدرستها ، في الامتحانات المقبلة ، وفي البنات والأربعة أولاد الذين
تعدهم لدخول هذه الامتحانات . وبينما كانت تفكر في الامتحانات لحق
بها هانوف أحد ملاك الأرض المجاورة في عربة تجرها أربعة خيول ،
وهو نفس الرجل الذي كان في السنة الماضية ممتحناً خارجياً في مدرستها
، وعندما وصل بحدائها تعرف عليها وأحنى رأسه وقال :

- «صباح الخير ، أظنك عائدة إلى البيت» .

وهانوف رجل في الأربعين من عمره في وجهه قلق وإرهاق ومعالم
الشيخوخة تدب فيه ، ولكنه مع ذلك مازال جميلاً ومارالت النساء تعجب
به ، وكان يعيش في قصره وحيداً ، بعد أن ترك الخدمة . وكان الناس
يقولون أنه لا يقوم بعمل ما في بيته ، وإنما يكتفى بأن يذرع الحجرات
جيئة وذهاباً وهو يصفر أو يلعب الشطرنج مع خادمه العجوز . كما قيل
أيضاً أنه يشرب كميات هائلة من الخمر ، والواقع أن أوراق الامتحانات
التي أعادها السنة الماضية كانت فعلاً تفوح برائحة الخمر . وأثناء
الامتحانات كان يرتدى ملابس جديدة أنيقة ، واعتبرته ماريا فاسيلينا
جذاباً للغاية . وجلست طيلة الوقت إلى جانبه مرتبكة . كانت قد
اعتادت أن ترى في المدرسة ممتحنيين يتميزون بالتمت والتعقل بينما

كان هانوف لا يجد أسئلة يوجهها إلى الطلبة ، وكان مؤدباً ورفيقاً للغاية . ولا يعطى سوى أعلى الدرجات .

وقال هانوف مخاطباً ماريا فاسيليفنا .

— «كنت ذاهباً إلى ريارة باركفيتش ، ولكن قيل له أنه ليس في البيت»
وخرجوا من الطريق العام إلى طريق جانبي مؤدى إلى القرية ،
هانوف بعربته يتبعه سيمون ، وكانت الخيول الأربعة تمشى متتدة تجر
بصعوبة العربة الثقيلة خلال الوحل . وأخذ سيمون ينتقل من جانب إلى
جانب ليلتزم حافة الطريق ، يعبر أحياناً أكواماً من الثلج وأحياناً أخرى
مستنقعات من الماء ، وينزل بين الحين والحين من على مقعده ليجر
الخيول بيده ، وكانت ماريا فاسيليفنا مازالت تفكر في المدرسة ، وفي
امتحان الحساب وهل يجيء صعباً أم سهلاً . وشعرت بضيق من مجلس
القرية ، لم تجد أحد منهم في المكتب أمس ، هل هذا هزل أم عمل !
إن لها سنتين تطلب إليهم أن يقيلوا الحارس الذي لا يقوم بعمل ما ،
ويعاملها بوقاحة ويضرب الطلبة ، وما من أحد يعيرها اهتماماً ونادراً ما
استطاعت أن تجد رئيس مجلس القرية في مكتبه فإن وجدته قال لها
والدموع تملأ عينيه أنه غارق في العمل ، وليس لديه دقيقة واحدة من
ال فراغ ، والمفتش لا يزور المدرسة إلا مرة كل ثلاث سنوات ولا يفهم
واجباته لأنه كان مفتشاً في الجمارك وحصل على وظيفة مفتش مدارس
نتيجة لاتصالاته بأصحاب النفوذ .

ومجلس المدرسة لا يجتمع إلا نادراً ، وإن اجتمع لا تعرف هي
اجتمع ، والمسئول عن المدرسة يعمل فى دبغ الجلود ، ويكاد يكون
جهل الفلاحين ، ثم أنه غبى ووقح ، وصديق حميم للحارس وهي
تعرف أين تتجه بشكواها وبتحرياتها .

وقالت لنفسها وهي تنظر إلى هانوف «إنه جذاب حقاً» .

وازداد الطريق سوءاً على سوء ، ومروا خلال الغابة ، ولم يك
هناك مجال يتيح للعربة أن تستدير ، وغرقت العجلات ، وأصابته
المياه برشاشها . وضربتهم أغصان الأشجار فى وجوههم وقال : هانوة
وهو يضحك «ياله من طريق» .

ونظرت إليه المدرسة فى عجب . لم يعيش هذا الرجل الغريب
هنا؟ وما فائدة نقوده ومظهره الجذاب ، وسلوكه المهدب فى هذا الوح
، فى هذه الأرض الموحشة التى هجرها الله ؟ . وهو لا يجنى من الحية
مكسباً ، وهاهو ذا شأنه شأن سيمون يسوق العربة فى طريق موحل ويعانى
نفس المتاعب التى يعانىها سيمون . ولماذا يعيش الإنسان هنا إن كان
يستطيع أن يعيش فى بترسبورج أو فى الخارج ؟ إن المسألة بسيط
بالنسبة لرجل غنى مثله ، إنه يستطيع أن يختار لنفسه طريقاً ممهداً بدلا
من ذلك الطريق الوعر ، وإن يتجنب هذا البؤس ، بتجنب نظرة اليأس
التي ترتسم على وجه سيمون ، ولكنه يكتفى بالضحك ، ولا يبدو أن
يهتم بكل هذا . أو يريد لنفسه حياة أفضل أنه طيب ، ناعم ، ساذج ،
ولا يفهم هذه الحياة الخشنة تماماً كما كان فى الامتحانات . وهو لا يهدى

المدرسة سوى كرات أرضية صغيرة، ثم يعتبر نفسه مفيداً وعضواً عاملاً في قضية التعليم العام ، وما فائدة كراته الأرضية هنا ؟ وصاح يمون .
- «اثبتى فى مكانك يافاسيليفنا» .

وارتجت العربة فى عنف وكادت تنقلب . وسقط شئ ثقيل على قدمى ماريا - كانت حزمة مشترواتها . وكان لابد وأن تصعد العربة طريقاً مرتفعاً خلال التل الصخرى ، والماء يموج فى الحفر المنحنية . وكيف يستطيع الإنسان أن يمضى فى مثل هذا الطريق ! وتنفست الخيل فى صعوبة ، ونزل هانوف من عربته ومشى إلى جانب الطريق فى معطفه الطويل . كان يشعر بحرارة الجو وقال .

- «ياله من طريق» ، وضحك من جديد ، «لابد وأنه سيحطم العربة عن قريب» .

وقال سيمون بمرارة :

- «ليس هناك ما يجبرك على الخروج فى مثل هذا الجو . خير لك أن تبقى فى منزلك» .

- «إنى أشعر بالملل فى منزلى يا جدى العزيز» ولا أريد أن ألزم بيتى» .

وبداً هانوف إلى جانب سيمون رشيقاً ومليئاً بالحيوية ، ولكن فى مشيته بداشئ ما يشير إلى أن الوهن بدأ يتسرب إلى جسده وأنه فى

طريقه إلى الأنهيار ، وفجأة فاحت رائحة الخمر في الغابة . وامتلاً قلب مارياسيليفنا بالخوف وبالإشفاق ، الإشفاق على ذلك الرجل الذي يتجه إلى الانهيار دون سبب معقول . وخطر ببالها أنها لو كانت زوجته أو شقيقته لكرست حياتها لإنقاذه من الإنهيار . زوجته ! هذا هو قانون الحياة . أن يحيا هو وحيداً في منزله الكبير . وأن تحيا هي وحيدة في القرية التي هجرها الله ، وأن يبدو لسبب ما مجرد التفكير في إمكانية تألفهما كنديين مستحيلاً ومضحكاً والواقع أن الحياة قد نظمت والعلاقات الإنسانية قد تعقدت ، بطريقة تستعصى على الفهم بحيث يتوه الإنسان عندما يفكر فيها ويشعر بالألم .

وقالت ماري لنفسها «وهذا بدوره أمر يستعصى على الفهم ، لماذا يمنح الله الجمال . والجلال والعيون الحزينة الحلوة للضعفاء ، وللمنحوسين والتافهين - لماذا ينعمون بهذه الجاذبية ؟! » .

وقال هانوف وهو يركب عربته

- «لابد لنا الآن أن نغير وجهتنا ونستدير إلى اليمين ، مع السلامة أتمنى لك حظاً سعيداً» .

ومن جديد فكرت ماري في الطلبة ، وفي الامتحانات وفي الحارس وفي مجلس المدرسة . وعندما ردد الريح صوت العربة التي ذهبت بعيداً ، اختلطت هذه الأفكار بغيرها ، وشعرت ماري بحنين إلى العيون الجميلة وإلى الحب ، وإلى السعادة التي لن تأت أبداً ! .

زوجته ! البرد يشتد فى الصباح ، والمدفأة عاطلة . والحارس قد اختفى ، والأطفال يأتون إلى المدرسة بمجرد أن ينبج الصبح ، ومعهم الثلج والوحل والضجة ، وكل شئ متعب وغير مريح ، مسكنها يتكون من حجرة واحدة ومطبخ إلى جانبها ، ورأسها تؤلمها كل يوم بعد انتهاء العمل ، وبعد العشاء تعاني من معدتها وعليها أن تجمع النقود من أطفال المدرسة لشراء الوقود ولأجر الحارس ، وأن تعطيها للمسئول عن المدرسة ، ثم ترجوه وتلحف الرجاء ، ترجو ذلك الجلف المتخم بالطعام بأن يرسل إليها وقوداً وبالليل تحلم بالامتحانات وبالفلاحين وبالثلوج المتراكمة ، وهذه الحياة تجعلها تهزم قبل أوانها وتبدو خشنة قبيحة ثقيلة الحركة كما لو كانت مصنوعة من الرصاص . وهي دائماً خائفة ، وهي تقفز من مقعدها ولا تجسر على الجلوس فى حضرة أحد أعضاء مجلس القرية أو المسئول عن المدرسة ، وهي تستخدم عبارات رسمية مليئة بالاحترام عندما تتحدث عن واحد منهم وليس هناك من يعتقد أنها جذابة والحياة تمضى جافة بلا عاطفة . بلا حنان من أصدقاء ، ولا معارف ذوى قيمة .

وأى موقف مؤلم يكون موقفها وهذه حالها لو كانت قد وقعت فى الحب .

— «الزمنى مكانك يافاسيليفنا» .

ومن جديد طريق مرتفع خلال التل .

لقد أصبحت مدرسة بحكم الضرورة ، دون أن تشعر برغبة حقيقية في التدريس . ولم تفكر يوماً أنها تخدم قضية العلم . وبدا لها دائماً أن أهم شئ في عملها الامتحانات لا الأطفال ولا العلم وهل لديها وقت لتفكر في المهنة ، في خدمة قضية العلم ؟

واستمر سيمون يتخير أقصر الطرق وأجفها ، خلال المراعى والطرق الخلفية للقرية ، ولكن الفلاحين منعه من المرور مرة ومرة أخرى لم يستطع أن يعبر أرض راعي الكنيسة . وفي المرة التالية وجد أن إيفان أيونوف اشترى قطعة من المالك وحفر فيها خندقاً . وكان عليهم أن يستديروا إلى الخلف من جديد .

ووصلوا إلى نيزنى جورودتش وإلى جانب الحانة حيث مازال الثلج متراكماً وقفت عربات كبيرة تحمل زجاجات ضخمة من حامض الكبريت . وفي الحانة عدد كبير من الناس أغلبهم من سائقي العربات ، ورائحة فودكا ودخان السجائر ، وجلود المشية ، وأصوات عالية لمناقشات ، والباب الخارجى يفتح ويعلق . ومن خلال الحائط تسرب صوت لا يتوقف لآلة موسيقية تعزف في المحل الملحق بالحانة . وجلست ماريا فاسيليفنا تشرب الشاي . بينما جلس بعض الفلاحين إلى مائدة مجاورة يشربون البيرة والفودكا . ونضح العرق على وجوههم من الدخان الذى عبقت به الحانة .

واختلطت الأصوات المتصايحة .

«اسمع ياكوزما» ، «ماذا» ، «ليحرسنا الله» .

«أنا أؤكد ذلك يا إيفان ديمنيش» «احترس أيها الرجل العجوز» وبدأ
رجل صغير الحجم بوجه ملىء بالبقع وبذقن سوداء يسب ، كان واضحاً
أنه فقد وعيه نتيجة للسكر .

وقال سيمون فى غضب وهو يجلس فى جانب من الحانة يخاطب
الرجل المخمور .

– أنت ! لماذا تسب ؟ ألا ترى السيدة الشابة ؟

وفى جانب آخر قلد أحد الناس سيمون وقال فى سخرية «السيدة
الشابة!» .

– قطع من الخنازير .

وقال الرجل المخمور فى ارتباك

– إننا لم نقصد شيئاً ، أرجو أن تقبلنى اعتذارى ، إننا ندفع ثمن ما
نشرب بنقودنا وكذلك تفعل السيدة . صباح الخير !

وأجابت المدرسة .

– صباح الخير .

ونحن نشكرك بكل قلوبنا .

وشربت «ماريا فاسيليفنا» الشاي فى رضاء ، وبدأ وجهها يحمر هى الأخرى ، كالفلاحين ، وانصرفت إلى التفكير فى خشب الوقود وفى الحارس .

ووصل إلى مسمعا الكلام التالى من المائدة المجاورة .

- إنها مدرسة فى فياروفنا ، ونحن نعرفها ، أنها سيدة طيبة .

- لا بأس بها .

وكان الباب المتحرك يطرق باستمرار ، عندما يخرج أحد أو يدخل وماريا فاسيليفنا تجلس حيث هى ، تفكر دائماً فى نفس الأشياء والآلة الموسيقية تعزف وتعزف وبقع الشمس كانت على الأرض ، ثم انتقلت من الأرض إلى الحائط ، ثم اختفت نهائياً ووفقاً للشمس كان الوقت بعد الظهر . وكان الفلاحون على المائدة المجاورة يستعدون للقيام وتقدم الرجل المخمور بخطى ثابتة إلى ماريا وقدم إليها يده يصافحها وحذا حذوه الرجال الآخرون وخرجوا الواحد أثر الآخر وطرق الباب الخارجى ثمان طرقات .

ونادها سيمون .

- استعدى يا فاسيليفنا

ومن جديد وصلوا رحلتهم فى خطوات متتدة .

- وقال سيمون وهو يستدير فى اتجاهها .
- منذ زمن كانوا يبنون هنا مدرسة ، ثم حدث أمر مؤسف .
- ماذا حدث ؟
- يقال أن رئيس المجلس وضع ألف جنيه فى جيبه وأن المسئول عن المدرسة أخذ الألف الأخرى بينما أخذ المدرس خمسمائة جنيه .
- إن المدرسة بأجمعها لا تتكلف سوى ألف جنيه ، ومن الخطأ أن نلطح سيرة الناس : وهذا كله كلام فارغ .
- لا أعرف وإنما أردت أن أخبرك بما يقوله الناس .
- ولكن من الواضح أن «سيمون» لا يصدق ما تقوله المدرسة ، وأن الفلاحين لا يصدقونها ، وأنهم كانوا دائماً يعتقدون أن مرتبها أكبر مما ينبغى وأنها تحتفظ بالجزء الأكبر من المال الذى تجمعه من الأطفال كئمن للوقود وأجر للحارس . والمسئول عن المدرسة يعتقد نفس الشئ ، بينما هو نفسه يربح من ثمن الوقود ويتلقى أجراً من الفلاحين لقاء اشرافه على المدرسة دون علم السلطات .
- والآن أصبحت الغابة والحمد لله خلفهم ، وبقيّة الطريق إلى فيازوفيا مسطحة وقد قاربت الرحلة على الانتهاء ، وكان عليهم أن يعبروا النهر ثم شريط القطار ثم تظهر فيازوفيا فى الأفق .

وقالت «ماريا فاسيليفنا» «السيمون» .

- إلى أين تذهب ؟ أسلك الطريق المجاور للجسر اليمين .
- ولم ؟ إننا نستطيع أن نسلك هذا الطريق أيضاً ، فالماء ليس عميقاً في النهر كما تتصورين .
- احترس وإلا أغرقت الحصان .
- ماذا ؟

ورأت ماريا فاسيليفنا العربة ذات الأربع خيول وقالت :

- أنظر أنه هانوف يسوق في اتجاه الجسر ، أنه هو على ما أظن .
- نعم هو هانوف ، وهكذا لم يجد «باكفيسست» في المنزل ، كان عقل هذا الرجل أشبه بعقل الخنزير . ليرحمنا الله ! ولماذا يأخذ ذلك الطريق ، لماذا ! إن طريقنا أقصر من الطريق الذي يسلكه بحوالى ميلين .

ووصلت عربة «السيمون» إلى النهر ، وفي الصيف يكون النهر أشبه بمجرى صغير يمكن عبوره على الأقدام ، وهو يجف عادة في أغسطس ، ولكنه بدأ الآن بعد فيضان الربيع عريضاً ، سريعاً ، موحلاً وبارداً ، وعلى الشاطئين وعلى مقربة من الماء بدت آثار عجلات لعربات عبرت النهر حديثاً .

وصاح سيمون مخاطباً حصانه «ها» في غضب وقلق ، وشد اللجام
في عنف وحرك كتفيه كما يحرك الطير جناحيه وصاح من جديد «ها» .
وغاص الحصان في الماء حتى ارتفع إلى بطنه ثم توقف ولكنه ما
لبث أن تقدم من جديد في صعوبة ، وشعرت «ماريا فاسيليفنا» ببرودة في
قدميها .

وقامت واقفة وصرخت في الحصان بدورها «ها» .

وطلعوا إلى الشاطئ .

وقال سيمون وهو يرخى اللجام .

- ليرحمنا الله .

وكان حذاؤها وساقاها قد غرقا في الماء وكذلك الجزء الأسفل من
ثوبها ومن معطفها ، كما ابتل السكر والدقيق وكان هذا هو أسوأ ما في
الأمر ولم تستطع ماريا أن تفعل شيئاً ، ضمت يديها في يأس وقالت :

- أوه سيمون سيمون ! كم أنت متعب متعب حقاً ..

وكان الحاجز مقفلاً أمام الشريط ، والقطار يخرج من المحطة
ووقفت ماريا عند المعبر تنتظر حتى يمر القطار وهي ترتجف من البرد ،
وبدت فيازوفيا في الأفق والمدرسة بسقفها الأخضر ، والكنيسة بصلبانها
التي تلتمع في أشعة الشمس الغاربة . وتألفت نوافذ المحطة بدورها ،

وصعد دخان وردى من القاطرة... وبدا لها كما لو كان كل شئ يرتجف من البرد .

وهذا هو القطار ، النوافذ تعكس الضوء اللامع كالصليبان على الكنيسة ، والضوء يؤلم عينيها كلما نظرت إلى النوافذ ، وفى عربة من عربات الدرجة الأولى وقفت سيدة ، وتطلعت إليها ماريا وهى تمر بها . أمها ! أى شبه كان لإمها هذا الشعر السخى الجميل ، وهذا الجبين ولفتة الرأس هذه وبوضوح عجيب ولأول مرة انبعثت فى خيالها صورة حية لأمها ، لأبيها ، لأخيها ، لشقتهم فى موسكو ، لسمك الملون فى أحواضه ، لكل شئ بأدق تفاصيله وسمعت صوت البيانو وصوت أبيها وشعرت كما لو كانت هناك ، صغيرة جميلة ، حسنة الملبس فى حجرة مضيئة دافئة بين أهلها ، وفجأة تملكها شعور من السعادة الدافقة ، وضغطت بكفيها على صدغيها فى نشوة ، ونادت بصوت ناعم ، صوت متوسل...

- أمى .

وبدأت تبكى ولم تكن تعرف لم تبكى ، وفى هذه اللحظة بالذات وصل هانوف بمركبته ذاب الخيول الأربع ، وعندما رأته تصورت سعادة دفاقة لم تكن تحلم بوجودها وابتسمت له وأحنت رأسها له كند ، كصديق وبدا لها أن سعادتها تتوهج فى السماء وعلى جوانب الأرض فى النوافذ والأشجار ، لم يمت أبوها ولم تمت ولم تكن فى يوم من الأيام

مدرسة ، كان حلماً قريباً ، حلماً طويلاً ثقيلاً ، وهي الآن قد استيقظت

– «فاسيليفنا اركبى العربة»

وفي الحال تلاشى كل شيء ، وارتفع الحاجز ببطء ، ودخلت ماريا فاسيليفنا العربة وهي ترتجف من البرد ، وعبرت العربة ذات الأربعة خيول خط القطار ، وتبعها سيمون ورفع عامل الإشارة قيمته .

– ها هي فيازوفيا ها نحن قد وصلنا

٤ - كائن ضئيل

انظرون تشيخوف

«أيها السيد المبجل ، الأب والمحسن» ، كان موظف صغير يدعى نفيرازيموف يكتب مسودة خطاب للتهنئة في عيد الفصح ، «أمل أن تقضى هذا اليوم المقدس ، وأياماً كثيرة آتية ، في صحة طيبة ، ورخاء ، ولأسرتك أيضاً...» .

كان المصباح ، الذي كان الكيروسين آخذاً في التناقص فيه ، يبعث الدخان وتصدر عنه رائحة . وكان ثمة صرصور شارد يجرى على المائدة ، في فزع قرب اليد التي يكتب نفيرازيموف بها ، وبعيداً عن المكتب بغرفتين ، كان البواب بارامون ينظف للمرة الثالثة خير حذاء لديه ، وبنشاط كان معه صوت فرشاة التلميع وصوت بصاقه مسموعين في كل الحجرات .

تساءل نفيرازيموف : «ما عساني أكتب له أيضاً ، ذلك الوغد ؟ وهو يرفع عينيه إلى السقف المغطى بالسناج .

على السقف رأى دائرة مظلمة - هى خيال ظل المصباح - وتحتها كان الأفريز المترب ، ومن تحته الجائط ، الذى كان مصبوغاً - ذات يوم - بلون طينى ضارب إلى الزرقة . ولاح له المكتب مكاناً موحشاً إلي الحد الذى شعر معه بالأسف لا من أجل نفسه فحسب ، وإنما حتى من أجل الصرصور .

وفكر قائلاً وهو يتمطى : «عندما أترك العمل ، سأمضى بعيداً ، ولكنه سيظل يعمل هنا ، طوال حياته الصرصورية . إنى أشعر بالسأم ! هل أنظف حذائى ؟» .

وإذ تمطى نفيرازيموف مرة أخرى ، توجه متثاقلاً ، بكسل ، إلى غرفة البواب . كان بارامون قد انتهى من تنظيف حذائه . وإذ كان يمد إحدى يديه ، ويمسك بالفرشاة فى اليد الأخرى ، وقف عند زجاج النافذة المفتوحة يستمع .

وهمس لنفيرازيموف ، ناظراً إليه بعينين منتبهتين ومفتوحتين على سعتهما : «لقد بدءوا يدقون الأجراس فعلاً» .

فأدنى نفيرازيموف أذنه من زجاج النافذة المفتوحة ، واستمع ، سبحت دقات أجراس عيد الفصح فى الغرفة ، مع هبة من هواء الربيع المتجدد . وامتزج رنين الأجراس بضوضاء العربات . وفوق عماء الأصوات ارتفعت النبرات السريعة ، من طبقة التينور ، صادرة عن أقرب كنيسة ، وكذلك ضحكة عالية ثابتة .

«أى عدد من الناس ! تنهد نفيرازيموف ، وهو ينظر إلى الشارع ، حيث كانت ظلال الرجال تمر ، الواحدة في أثر الأخرى ، تحت مصابيح الإضاءة . «إنهم جميعاً يسرعون إلى صلاة منتصف الليل . . . لابد أن يكون زملاؤنا قد شربوا الآن ، تستطيع أن تكون على يقين من ذلك ، وأنهم يتمشون في المدينة . أى قدر من الضحك ، وأى قدر من الحديث! إننى الوحيد السيئ الحظ ، إذ يتعين على أن أجلس هنا ، فى مثل هذا اليوم . وأنه ليتعين على أن أفعل ذلك كل سنة !» .

حسناً ، لا أحد يجبرك على القيام بهذه الوظيفة . . . فلم يكن دورك يقضى بأن تعمل اليوم ، بيد أن زاستوبوف قد استأجرك لتحل محله . وفى الوقت الذى يستمتع فيه الآخرون بوقتهم ، تؤجر نفسك ، إنما هو الجشع !» .

«يا للشيطان ! ليس هناك الكثير ، حتى يشعر المرء بالجشع عليه ، إنما هو إنهاء للصيام ، وأن تشرب وتتناول بعض العشاء . ثم تذهب إلى النوم . إن المرء ليجلس إلى المائدة ، وثمة كعكة لعيد الفصح ، وبراد الشاي يفتح ، وثمة شئ صغير جذاب إلى جوارك . . . إنك تشرب قدحاً ، وتربت عليها تحت الذقن ، والأمر كله من أعلى طراز . . . تشعر بأنك شئ ما . . . اتش ! لقد خلطت بين الأشياء ! انظر إلى تلك الفتاة اللعوب ، وهى تسير فى عربتها ، بينما يتعين على أن أجلس هنا ، وأنفكر» .

- لكل منا نصيبه فى الحياة يا إيفان دانيليتش . بحق الله ، سترقى وتركب عربية ، فى يوم من الأيام .
- أنا ؟ كلا يا أخى . ليس هذا محتملاً . لن أصل إلى أكثر من لقب ، حتى ولو حاولت ، حتى أنفجر . فلست بالرجل المتعلم .
- إن رئيسنا ليس بالمتعلم أيضاً ، ولكنه ..
- حسناً . ولكن الرئيس سرق مائة ألف ، قبل أن يحصل على منصبه . وإن له من الأخلاق والسلوك ما يختلف عن أخلاقى وسلوكى تمام الاختلاف ، أيها الأخ . فحين تكون للمرء أخلاقى وسلوكى ، لا يستطيع أن يحقق الكثير ا ثم يا له من لقب وغد أحمله : نفيرازيموف ا إنه وضع ميثوس منه فى الحقيقة . على المرء أن يستمر على هذا الوضع ، أو يشنق نفسه .
- تحرك مبتعداً عن النافذة وسار متعباً فى أرجاء الحجرات . وأخذ رنين الأجراس يتعالى على نحو مطرد . ولم يكن هناك ما يدعو إلى الوقوف قرب النافذة كى تسمعه . وكلما أزداد تمكنا من سماع الأجراس ، وازداد ضجيج العربات ، لاحت له الجدران الطينية والإفريز الملطخ بالسناج ، أشد قتامة ، وازدادت كمية الدخان المنبعث من المصباح .
- «إن كل ما يعطيه لى لا يجاوز روبلين ، ورباط عنق ، كمنحة إضافية .. إنما هو الفقر ، لا الجشع . وإنه ليكون من اللطيف الآن ،

كما تعلم ، أن تمضى مع شلة إلى الصلاة . . هل أترك هذا الأمر ،
وأغادر المكتب ؟ «كذلك فكر نفيرازيموف .

غير أن مثل هذا الفرار لم يكن وعداً بشئٍ جدير بأن يحصل عليه .
فإن نفيرازيموف ، بعد أن يخرج من مكتبه ويجول في أنحاء المدينة ،
كان خليقاً بأن يعود إلى مسكنه ، وفي مسكنه كان الجو أشد قتامة ،
وأبعث على الحزن ، مما هو الشأن في المكتب . وحتى لو فرضنا أنه
تمكن من أن يقضى ذلك اليوم على نحو مبهج ، وبراحة ، فما الذى
ينتظره بعد ذلك؟ لاشئٍ سوى الحيطان الرمادية نفسها ، ونفس العمل
الذى هو مضطر إليه اضطراراً ، وخطابات التحية .

وقف نفيرازيموف ساكناً فى منتصف المكتب ، وغاص فى التفكير .
كان التوق إلى حياة جديدة أفضل يقرض قلبه ، بوجع لا يحتمل . وكان
يشعر بتوق حار إلى أن يجد نفسه فجأة فى الشارع ، ويمتزج بالجمع
الحى ، ويشترك فى الاحتفال الجاد ، الذى كانت هذه الأجراس كلها
تقرع من أجله ، وهذه العربات تصدر أصواتها . تاق إلى ما عرفه فى
طفولته- دائرة الأسرة ، ووجوه أهله المحتفلة ، والقماش الأبيض ،
والنور ، والدفء . . . وفكر فى العربة التى كانت السيدة ، لتوها ،
تركبها ، والمعطف الذى كان كبير الكتبة بالغ الأناقة فيه ، والسلسلة
الذهبية التى تزين صدر السكرتير . . واتجه تفكيره إلى فراش دافئ ، من
طراز ستانيسلاف ، وفى حذاء جديد ، ورى بلا ثقوب عند المرفقين
. . . فكر فى هذه الأشياء كلها لأنه لم يكن يملك شيئاً منها .

وفكر قائلاً : «هل أسرق ؟ إنه حتى لو كانت السرقة أمراً ١٣٧ سهلاً ، فإن الاختفاء هو الشيء الصعب ، إن البشر يفرون إلى أمريكا - فيما يقولون - ربما سرقوه ، غير أن الشيطان يعلم أين عسى تلك الأمريكية المباركة أن تكون . لابد للمؤمن أن يكون متعلماً ، حتى ليسرق ، فيما يبدو» .

وخفت صوت الأجراس . ولم يسمع سوى ضوضاء العربات البعيدة وسعلة بارامون بينما أزداد حبوطة وغضبه حدة ، وأضحيا لا احتمالان . ودقت ساعة المكتب الثانية عشرة والنصف .

- هل أكتب تقريراً سرياً عنه ؟ لقد فعل بروشكين ذلك ، وارتقى بسرعة .

جلس نفيرازيموف إلى مكتبه وتفكر . كان المصباح الذي نضب فيه الكيروسين يدخن بعنف ، ويهدد بالانطفاء . وكان الصرصور الشارد مازال يجرى على المائدة ، دون أن يجد مكاناً يستريح فيه .

«يستطيع المرء دائماً أن يرسل تقريراً سرياً ، ولكن كيف يكتبه ؟ أريد أن أضمنه كل أنواع التلميحات والإيعازات ، كما فعل بروشكين ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك . ولو أني فعلت أى شيء ، لكنت أول من يقع في مشكلة بسببه . إنى حمار . اللعنة على !» .

وإذ راح نفيرازيموف يقدح رناد ذهنه باحثاً عن سبيل للهرب من وضعه الميئوس منه ، حدق إلى المسودة التي كتبها . كان الخطاب

مكتوباً إلى رجل يخافه ويكرهه بجماع قلبه ، وكان يحاول - طوال السنوات العشر الماضية - أن يعتصر منه وظيفة مرتبها ثمانية عشر روبلا في الشهر، بدلاً من وظيفته التي يتقاضى عنها ستة عشر روبلاً .

«سأعلمك كيف تجرى هنا ، أيها الشيطان» . وضرب الصرصور ، بحركة شريرة بباطن كفه ، إذ شاء سوء حظه أن تقع عليه عيناه . «أيها القدر !» .

فسقط الصرصور على ظهره ولوى قدميه في قنوط . فأخذه نفيرازيموف من إحدى رجليه ، ورمى به في المصباح . فتوهج المصباح وأحدث صوتاً .

وشعر نفيرازيموف بأنه أحسن حالاً .

٥ - الشقاء

انطون تشيخوف

الشفق يؤذن باقتراب الليل ، وندف كبيرة من الثلج تتطاير فى بطء حول مصابيح الطريق التى أضاءت لتوها ، وتكسو السقوف وظهور الخيل والأكتاف وأغطية الرؤوس بطبقة رقيقة ناعمة . وقائد الزحافة ، أيونا يوتابوف أبيض من قمة رأسه إلى قدميه . أبيض كالشبح . يجلس على مقعد القيادة دون أن يتحرك ، منحني كأقصى ما يستطيع الجسد البشرى أن ينحني . ويبدو أنه لو تساقط عليه تيار ثلجى منتظم لما فكر حتى إذ ذاك فى ضرورة إراحة الثلج عن جسده . ومهرته الصغيرة بيضاء وساكنة أيضاً ، وهى تبدو بسكونها وبحدة خطوط جسمها وبقوائمها الرفيعة التى تشبه العصا فى استقامتها أشبه ما تكون بلعبة من لعب الأطفال . وأغلب الظن أنها كانت غارقة فى التفكير ، فأى مخلوق ينتزع من المحراث ومن الحقول المنبسطة التى ألفتها عيناه ويرمى به فى هذه البؤرة المليئة بالأضواء المخيفة ، وبالضجة التى لا تنقطع ويبشر فى عجلة من أمرهم ، أى مخلوق هذا شأنه لا بد وأن يفكر .

وكان قد مضى وقت طويل دون أن يتحرك أيونا ومهرته ، لقد خرجا من الأسطبل وقت العشاء ومع ذلك لم يركب الزحافة راكب واحد ، لكن ظلال الليل تهبط الآن على المدينة ، ولون مصابيح الطريق الشاحب يتحول إلى ضوء وهاج ، وضجة الطريق تشتد ويسمع «أيونا» .

- زحافة إلى فيبر جسكايا . . . زحافة :

وبنقبة «أيونا» ويرى من خلال عينيه المغطاه بندف الثلج ضابطاً في معطف عسكري وغطاء للرأس .

ويكرر الضابط كلامه «إلى فيبر جسكايا - هل أنت نائم ؟ إلى فيبر جسكايا» .

ويشد «أيونا» اللجام دلالة على الموافقة فتتطاير قطع الثلج من على ظهر المهرة ومن على أكتافها . ويركب الضابط الزحافة ، ويقرعه قائد الزحافة ويلوح بالسوط بحكم القادة لا بحكم الضرورة وتشد المهرة عنقها هي الأخرى ، وتلتوى ساقاها الشبيهتان بالعصى وتبدأ السير فى تردد .

وفى الحال يسمع «أيونا» صوتاً يصيح به ، صوتاً ينبعث من كتلة من الظلام تتراقص أمام عينيه «إلى أين تتجه» ، إلى أين تتجه بحق الشيطان؟ ألزم يمينك أيها الرجل .

ويقول له الضابط فى غضب «إنك لا تعرف القيادة ، ألزم اليمين» ويلعنه سائق يسوق عربة وينظر إليه أحد المشاة فى غضب ويزيح الثلج

عن كمة حين يصطدم ذراعه بأنف الحصان وهو يعبر الطريق ويتحرك «أيونا» على مقعد القيادة كما لو كان يجلس على شوك ويرفع كتفيه ويدير عينيه في محجريهما كما لو كان غائباً عن الوعي ، كما لو كان لا يعرف أين هو ولم وجد في هذا المكان .

وقال الضابط متفكها «يالهم من أشرار ، أنهم يحاولون ما بوسعهم لكي يصطدموا بعصرتك ولكي يقعوا تحت حوافر حصانك ، أنهم يتعمدون ذلك تعمداً» .

ونظر «أيونا» إلى الراكب وحركة شفثيه وكان من الواضح أنه يريد أن يقول شيئاً . ولكنه لم يقله .

وسأله الضابط - ماذا ؟

وابتسم «أيونا» ابتسامة كثيبة وشد عنقه وخرج صوته خشناً ثقيلاً .

- ابني . . . ابني مات هذا الأسبوع ياسيدي .

- هيه - مات بماذا ؟

وأدار «أيونا» جسمه بأجمعه إلى الراكب وقال :

- من يدري ! لا بد وأنها الحمى . رقد في المستشفى ثلاثة أيام ثم مات . . . إرادة الله .

ومن الظلمة ارتفع صوت «استدر أيها الشيطان ، هل جنت أيها الكلب العجور ، انظر إلى أين أنت متجه !»

وقال الضابط :

«أسرع ، أسرع ، لن نصل إلى هناك إلا في صباح الغد إذا سقت بهذا البطء !»

و شد سائق الزحافة عنقه من جديد وارتفع عن مقعده ، وقرقع بسوطه . واستدار عدة مرات لينظر إلى الضابط ، ولكن الأخير أبقى عينيه معلقتين ، وكان من الواضح أنه لا يرغب في الاستماع إليه وبعد أن أنزل «أيونا» راكبه في فيبر جسكاي ، توقف عند مطعم ومن جديد انكمش في مقعده . . . ومن جديد لونه الثلج الأبيض ولون مهرته ، ومرت ساعة وبعدها ساعة .

واتجه إلى الزحافة ثلاثة شبان منها طويلاً القامة رفيعان والثالث أحذب قصير يتمايلون ويدبون بأحذيتهم الثقيلة على الرصيف .

وصاح الأحذب :

- إلى كوبرى البوليس أيها السائق ، ثلاثتنا . . . بعشرين كوبيك .

و شد «أيونا» اللجام وقرقع لحصانه ، لم تكن العشرون كوبيك أجراً مناسباً ، ولكنه لم يفكر في ذلك . لم يعد الأمر يهمه الآن ، روبيل أو خمسة كوبيك سيان مادام معه راكب . وصعد الشبان الثلاثة إلى العربة

وهم يتزاحمون ويتشائمون ويحاولون أن يجلسوا كلهم فى نفس الوقت ،
ولكن كان لابد من تسوية المسألة ، فلم يكن المقعد يتسع إلا لإثنين
وبعد الكثير من الاختلاف واللعنات اتفقوا على أن يقف الأحذب لأنه
أقصرهم .

- «حسناً هيا بنا» .

قال الأحذب بصوته المتقطع وقد استقر فى مكانه ولفحت أنفاسه
عنق «أيونا» . ثم أضاف .

- بسرعة ، يالها من غربة يا صديقى عربتك هذه ! أنك لا تستطيع أن
تجد فى بترسبرج بأجمعها غربة أسوأ منها .

وضحك «أيونا» - هى هى . . هى هى ! أنها ليست مدعاة للفخر .

- ليست مدعاة للفخر حقاً ، حسناً أسرع إذا ، هل ستقود بهذا البطء
طيلة الطريق ! هيه هل أضربك على قفاك .

وقال واحد من الآخرين .

- أن الصداق يؤلمنى . بالأمس شربت أنا وفاسكا أربع زجاجات من
البراندى فى منزل دوكماسوف .

وقال الثالث بغضب .

- أنا لا أستطيع أن أفهم لم تقول هذا الهراء . إنك تكذب بطريقة
مخجلة .

- أقسم بشرفي أنها الحقيقة .
- إذا كانت القملة تسعل فأنت تقول الحقيقة
وفتح أيونا فمه في شبه ابتسامة وقال :
- هي هي شبان يمرحون وصاح الأحدب في غضب
- ليأخذك الشيطان هل ستسرع أم لا أيها الأجرى ، أهذه طريقة قيادة!
اضربها بالسوط أيها الرجل ، اللعنة اضربها بقوة .
- وأحس أيونا بالأحدب خف ظهره يدفعه وبصوته الغاضب يرتعش
وهو يوجه اللعنات إليه . وشيئاً في شئ يزول شعور أيونا بالوحدة وتقل
وطأته في قلبه . ويستمر الأحدب يلعنه حتى يبدأ يضحك على فكاهة
ألقاها أحد زملائه ويستمر يضحك حتى يداهمه السعال . ويبدأ زميلاه
الطويلان يتحدثان عن فتاة اسمها ناديا بتروفنا ، وينظر أيونا إليهم ،
وينتظر حتى تسود فترة صمت قصيرة فيلتفت إليهم من جديد ويقول :
- هذا الأسبوع . . . ابني هذا الأسبوع ابني مات .
- ويتنهد الأحدب ويمسح شفثيه عقب السعال ويقول :
- كلنا سنموت والآن اسرع اسرع ، أنا وأصدقائي لا نستطيع أن
نتحمل هذا الزحف البطيء ، متى ستوصلنا إلى هناك ؟
- امنحه قليلاً من التشجيع . . صفة على قفاه .

- أسمع أيها الأجرع العجوز ، سأجعلك نشيطاً ، لو احترم الإنسان أمثالك فخير له يمشى على قدميه ، أسمع أيها الرجل ؟ أم لعلك لا تهتم على الإطلاق بما نقول

وتدوى صفعة على قفا أيونا يسمعها أكثر مما يشعر بها .

ويضحك (هى هى شبان يمرحون . . ليمنحهم الله الصبحة)

ويسأله أحد الشابين الطويلين .

- هل أنت متزوج أيها السائق ؟

- أنا ؟ هى هى شبان يمرحون . . أن الأرض الرطبة هى زوجتى

الوحيدة الآن هى هو هو ، أى القبر هاهو ابني يموت وأنا أعيش ، أنه شئ غريب ، لقد طرق الموت الباب خطأ وبدلاً من أن يأخذنى أخذ أبنى .

واستدار أيونا ليخبرهم كيف مات ابنه ، ولكن عند هذا تنهد الأحدب بارتياح وأعلن أنهم وصلوا أخيراً والحمد لله .

وبعد أن أخذ أيونا نقوده ظل يحدق طويلاً فى الشبان الثلاثة ، وهم يختفون فى المدخل المظلم ، ومن جديد أصبح وحيداً ، ومن جديد لم يملك سوى الصمت .

وعاد الشقاء الذى هان لفترة قصيرة ، عاد من جديد يمزق قلبه أقسى مما كان يمزقه من قبل .

وفى نظرة قلق وألم بدأت عينا أيونا اللتان لا تستقران فى مكانهما
ترقبان الجماهير وهى رائحة غادية على جانبى الطريق ، ألا يستطيع أن
يجد بين هؤلاء الآلاف من يستمع إليه ، ولكن الجماهير كانت تمر به لا
تشعر بشقائه . . وشقاؤه عميق لا حدود لعمقه ولو انفجر قلب أيونا
وفاض شقاؤه لأغرق الدنيا بأجمعها فيما يبدو ، ولكن أحداً ما لا يراه .
فقد وجد الشقاء مخبأ فى مكان تافه ، مكان لا يمكن أن يصل إليه إنسان
بشمعة فى ضوء النهار .

ويرى أيونا بوابا يحمل لفة ويقرر أن يوجه الحديث إليه ويسأله ؟

- ماهى الساعة الآن يا صديقى ؟

- الساعة قاربت العاشرة . . . لماذا توقفت هنا ؟ ابتعد عن هذا
المكان .

ويبتعد أيونا عن المكان خطوات ويحنى جسمه ويستسلم للشقاء .
ويشعر أن لا فائدة من الاتجاه إلى الناس ولكن قبل أن تنقضى خمس
دقائق يعتدل فى جلسته ويهز رأسه كما لو كان يشعر بألم حاد ، ويشد
اللجام . لا إنه لا يستطيع أن يتحمل أكثر مما تحمل .

ويقول فى نفسه ، إلى الأسطبل . . إلى الأسطبل .

وتسرع مهرته الصغيرة كما لو كانت تعرف أفكاره . وبعد ساعة
ونصف يجلس أيونا إلى جانب موقد قذر قديم وعلى الموقد وعلى الأرض

وعلى أرائك خشبية يغط أشخاص فى النوم والهواء ثقيل ملئ بالروائح العفنة ، وينظر أيونا إلى النائمين ويحك جلده ، ويندم على أنه عاد إلى البيت مبكراً .

(لم أكسب ما يكفى حتى لثمن الشوفان) ، وهذا هو السبب فى أننى أشعر بذلك الشقاء ، فالرجل الذى يعرف كيف يقوم بعمله الذى أكل ما فيه الكفاية وأكل حصانه ما فيه الكفاية يشعر بالراحة ومن ركن من الأركان ينهض سائق سابق ، ويسلك حلقة والنوم يغلب عليه ويتجه إلى مكان المياه .

ويسأله أيونا :

- هل تريد أن تشرب ؟

- يبدو هذا .

- بالعافية .. ولكن ابنى مات يازمىلى ، أسمع ؟ هذا الأسبوع فى المستشفى ... أنه أمر غريب ...

ونظر أيونا ليرى الأثر الذى تركته كلماته ولكنه لم ير لكلماته أثراً كان الشاب قد غطى رأسه واستغرق فى النوم .

وتنهذ الرجل العجوز وحك جلده ، كان به عطش إلى الكلام كعطش الشاب إلى الماء . هاهو أسبوع قد أوشك أن ينصرم منذ مات ابنه وهو لم يحدث أحد بعد حديثاً حقيقياً . أنه يريد أن يتحدث عن

الموضوع حديثاً جدياً مرسوماً . يريد أن يحكى كيف مرض ابنه وكيف تعذب ، وماذا قال قبل أن يموت وكيف مات . . . إنه يريد أن يصف الجناز وكيف ذهب إلى المستشفى لاستلام ملابس ابنه . ومازالت لديه ابنته أنيسيا فى الريف وهو يريد أن يتحدث عن أنيسيا بدورها ، ونعم لديه الآن الكثير عنه . وينبغى أن يتنهّد وأن يجد من يستمع إليه وأن يعجب من الزمن وأن يرثى . . . ولعله من الأفضل أن يتحدث إلى النساء فهن . يدمعن عند الكلمة الأولى رغم أنهن مخلوقات حمقوات .
قال أيونا لنفسه .

— دعنا نخرج ونلقى نظرة على المهرة ، فى الوقت متسع للنوم دائماً ، لا تخف فستنام بما فيه الكفاية .

ولبس أيونا معطفه وذهب إلى الأسطبل حيث تقف المهرة وهو يفكر فى الشوفان وفى العشب وفى الجو . . وهو لا يستطيع أن يفكر فى ابنه وهو وحيد . . . من الممكن أن يتحدث عنه مع شخص ما ، ولكن التفكير فيه وتصوره ألم محض لا يمكن للإنسان تحمله .

وسأل أيونا مهرته عندما رأى عينيها اللامعتين (هل تأكلين ؟ حسناً ، كلى ، كلى . . . أن لم نستطيع أن نكسب ما يكفى للشوفان فلنأكل العشب . نعم . . . لقد كبرت على قيادة العربات . . . كان ينبغى أن يكون ابنى هو الذى يقود لا أنا . . كان قائد بمعنى الكلمة . . كان ينبغى أن يعيش . . .) ويسكت أيونا وهلة ثم يستمر فى كلامه .

(هذه هي المسألة يافتاتى العزيزة . لقد ذهب كوزما أيونتش قال
وداعا . . . ذهب ومات دون سبب ما . . . والآن تصورى أن لك
مهرة صغيرة ، وكنت أنت أم هذه المهرة الصغيرة . . . وفجأة
ذهبت نفس هذه المهرة الصغيرة وماتت ستأسفين لموتها أليس
كذلك ؟) واستمرت المهرة الصغيرة تمضغ وتنصت ، وتتنفس
بالقرب من يدي سيدها وتحركت لو اعج أيونا فأخبر المهرة بالقصة
الكاملة

٦ - موت موظف

أنطون تشيخوف

فى إحدى الليالى الصافية جلس الكاتب الفائق إيفان ديمترتش تشرفياكوف على مقعد من مقاعد الصف الثانى يستمتع بمشاهدة أوبرا «أجراس كورنفيل» مستعينًا بإحدى النظارات المقربة .

وراح يشاهد المسرح وهو يرى فى نفسه أنه أسعد إنسان فى الوجود وعلى حين غفلة . لقد صارت عبارة «على حين غفلة» هذه من العبارات الدارجة ، ولكن كيف يتأتى للمؤلفين تجنبها والحياة ملأى بالمفاجآت ؟ على حين غفلة تغضن وجهه ودارت عيناه إلى أعلى وتعلقت أنفاسه . . وأدار وجهه بعيداً عن منظاره وقفز من مقعده ، وقذف بالصوت المعهود «تشوم» أى أنه عطس . وفى هذا الحين كان لكل واحد الحق فى أن يعطس حيث يريد . ولم يكن أحد من الفلاحين ومفتش البوليس ، بل وأعضاء مجلس البلاط يمنع نفسه من العطس ، كان لكل شخص أن يعطس ، أى شخص ، ولم يشعر تشرفياكوف بأية غضاضة فيما فعل ، فربت بمنديله على أنفه ثم أخذ ينظر فيما حوله ، كأى شخص مهذب ، ليرى ما إذا كان قد ضايق أحداً بعطاسه . وفى هذه اللحظة شعر بشيء

من الحرج ، إذ رأى رجلاً عجوزاً قصير القامة يجلس فى الصف الأول على المقعد الذى أمامه بالضبط ، وقد راح يمسح قفاه وجمجمته الصلحاء بقفازه ويزمجر ببعض الكلمات ، وعرف تشرفياكوف فى هذا الرجل الهرم بريجلوف القائد المدنى لوزارة المواصلات .

وقال فى نفسه : «لقد عطست عليه ! نعم أنه ليس رئيسى ، ولكنه عمل يدل على التأخر الشديد . لا بد أن أعتذر إليه» .

ومال تشرفياكوف إلى الأمام مصدراً سعدة خفيفة وقال فى أذن القائد :

- أرجو عفوك : يا صاحب السعادة . فلقد عطست . . ولم أقصد أن . . وقاطعه القائد قائلاً : «لا تذكر شيئاً» .

وحاول تشرفياكوف أن يواصل اعتذاره فقال «سامحنى» فأنى . . لم يكن ذلك من قصد !» وعاجله القائد بقوله :

«ألا تستطيع الركون إلى الهدوء من فضلك ! دعنى أنصت !» .

فشعر تشرفياكوف بشيء من الإحراج ، وابتسم ابتسامة خجلة وحاول أن يوجه التفاته إلى المسرح . وبدأ يشاهد الممثلين . ولكنه لم يعد يشعر بأنه أسعد إنسان فى الوجود ، إذ أنه ظل فريسة لوخز الضمير وفى فترة الراحة ذهب إلى حيث يستريح القائد ، وهناك توقف بعض الوقت . وفى نهاية الأمر تغلب على حالة الخجل المسئولية عليه فراح يتمتم قائلاً :

«لقد عطست عليك يا صاحب السعادة . . . سامحني . . . فأنت تعلم . . . إنى لم أقصد . . .» .

فنظر إليه بريجالوف وقد تدلت شفته السفلى من شدة التبرم ثم قال :
«أوه ! حقا ، لقد نسيت ذلك ، ألا تريد أن تنصرف ؟» .

وانصرف تشرفياكوف وهو يحملق بنظرة ملؤها الريبة في اتجاه القائد ، ويقول في نفسه «يدعى أنه نسي» ولكنى أخشى تلك النظرة التى تنبعث من عينيه . إنه لا يريد أن يكلمنى . فلا بد من أن أشرح له إنى لم أكن أقصد أن . . . وأن هذه حاجة طبيعية ، وإلا ظن أن أردت أن أبصق عليه . وحتى إذا لم يظن ذلك الآن ، فربما فيما بعد ! .

وحين وصل تشرفياكوف إلى منزله ، أخبر زوجته بسلوكه المشين . وبدأ له أن زوجته قد تلقت قصته بشيء من الخفة التى لا تليق . نعم إنها إرتاعت أول الأمر ، ولكنها لما تحققت من أن بريجالوف لم يكن «رئيساً» عاد إليها اطمئنانها وقالت : أعتقد أنه يجب عليك ، بالرغم من ذلك ، أن تذهب للاعتذار إليه ، وإلا ظن أنك لا تعرف كيف تسلك سلوك الناس المهذبين ، فى المجتمعات .

فأجاب بقوله : «هذا هو الواجب ! وقد حاولت الاعتذار له ، ولكنه كان غريب الأطوار . فلم ينطق بكلمة واحدة ذات معنى . هذا إلى أنه لم يكن هناك وقت كاف للكلام» .

وفي اليوم التالي لبس تشرفياكوف حلة الاحتفالات الرسمية الجديدة، وقص شعره ثم ذهب إلى بريجالوف ليبرر له سلوكه . وكانت غرفة الاستقبال الخاصة بالقائد تغص بذوى الشكاوى ، وكان القائد نفسه هناك يتلقى شكاواهم . وبعد أن ناقش عدداً صغيراً منهم رفع عينيه في وجه تشرفياكوف ، فبدأ يقول : «فى الليلة الماضية ونحن بالأركاديا . إذا كنت لا تزال تذكر ، يا صاحب السعادة ... ع . . . عطست ... و . . . و . . . حدث ... أن ... أرجو

ورد عليه القائد متأففاً : «يا للحماقة!» . ثم اتجه إلى الشخص التالي وسأله . . . «ماذا يمكن أن أعمل من أجلك؟» .

ولما انتهى القائد من النظر فى آخر شكوى ونهض ليعود إلى جناحه الخاص ، تبعه تشرفياكوف وهو يتمتم . «عفوك يا صاحب السعادة ! كل ما فى الأمر أن الندم الذى يشعر به قلبى قد جرأنى على إزعاج سعادتك . . .» .

فنظر إليه القائد نظرة من هو على وشك الصياح ، وأزاحه بيده وهو يقول : «إنك تستهزء بى أيها السيد !» ثم أغلق فى وجهه الباب .

فانطلق تشرفياكوف ، وهو يقول فى نفسه : تستهزىء به ! أنا لا أرى فى ذلك ما يدعو إلى الاستهزاء ، أيمكن ألا يكون قد فهم بالرغم من أنه قائد ؟ حسن جداً لن أزعج هذا السيد الرقيق باعتذراتى بعد الآن

وليستحوذ عليه الشيطان ! سأكتب إليه خطاباً ، ولن أعود إلى الذهاب إليه ! لن أعود ، وهذا كل ما فى الأمر .

كانت هذه فكرة تشرفياكوف وهو فى طريقه إلى منزله . . . ولكنه لم يكتب الخطاب . فقد راح يفكر ويفكر دون أن يستطيع تسطير كلمة واحدة . لذلك كان لزاماً عليه أن يذهب إلى القائد منذ الغد لكى يضع الأمر فى نصابها .

ولم يكذب يرى القائد يلقى نحوه نظرة متسائلة حتى انبرى يقول : «ياصاحب السعادة ، لقد جرؤت على إزعاجك بالأمس ، لا لكى أضحك منك ، كما ظننت سعادتك ، بل لأقدم إليك اعتذارى عن إساءتى إليك بالعطس . . أما عن الضحك منك ، فإنى لم أفكر فى شىء من هذا قط وكيف لى أن أجرؤ على ذلك ! إننا لو وضعنا فى أذهاننا أن نضحك من الناس لما بقى هناك أى احترام . . . أى احترام للرؤساء» .

فصاح فيه القائد بحدة ، وكل كيانه يهتز من الغضب : «أخرج!» .

وتتمتم تشرفياكوف قائلاً ، والخوف يكاد يصعفه : «أرجو عفوكم» .

فأخذ القائد يضرب الأرض بقدمه ويقول مكرراً : «أخرج !» .

وشعر تشرفياكوف بأن شيئاً ما قد انشق فى داخله . ولم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً وهو منطلق فى طريقه إلى الباب ، وخرج إلى الشارع وراح

يهم على وجهه حتى وصل إلى منزله بطريقة آلية ، فاستلتي على الأريكة . كما هو بحلته الرسمية ، ومات .

٧ - العملاق الاثنى

اوسكار وايلد

فى كل أصيل وإذ كان الأطفال يعودون من مدرستهم ، اعتادوا أن يذهبوا ويلعبوا فى حديقة العملاق . كانت حديقة كبيرة جميلة ذات عشب أخضر رقيق ، وهاهنا وهناك فوق العشب كانت توجد أزهار جميلة كالنجوم وكانت توجد اثنتا عشرة شجرة خوخ تتفتح فى الربيع عن أزهار رقيقة وردية اللون ولؤلؤية ، وفى الخريف كانت تنتهج فاكهة غنية . كانت الطيور تجلس على الأشجار وتصدح بصوت بالغ العذوبة إلى الحد الذى اعتاد الأطفال معه أن يتوقفوا عن ألعابهم لكى يستمعوا إليها . وكانوا يتصايحون ويقول بعضهم لبعض «ما أسعدنا هنا !» .

وذاذ يوم عاد العملاق . كان يزور صديقه الغول الكورنى وكان قد بقى فى زيارته سبع سنوات . وبعد أن انتهت هذه السنوات السبع كان قد قال كل ما كان يريد أن يقوله لأن حديثه كان محدوداً . وقرر أن يعود إلى قلعته . وحين وصل إليها رأى الأطفال يلعبون فى الحديقة .

فصاح بصوت بالغ الخشونة : «ماذا تصنعون هنا ؟» فتراكض
الأطفال بعيداً . قال العملاق «إن حديقتى ملك لى . يستطيع أى امرئ
أن يفهم ذلك ، فلن أسمح لأحد بأن يلعب فيها عداى . وهكذا بنى
حائطاً عالياً حولها وعلق عليها لافته :

«المتعدون سيقعون تحت طائلة العقاب» .

لقد كان عملاقاً بالغ الأنانية . والآن لم يعد للأطفال المساكين
مكان يلعبون فيه . لقد حاولوا أن يلعبوا على الطريق ولكن الطريق كان
مترباً جداً وملئاً بالأحجار الصلبة فلم يعجبهم واعتادوا أن يهيموا على
وجوههم حول الحائط المرتفع عندما تنتهى دروسهم وأن يتحدثوا عن
الحديقة الجميلة التى فى الداخل وان بعضهم يقول للبعض الآخر : «كم
كنا سعداء هناك !» .

ثم أقبل الربيع . فى كل أرجاء الأقليم كان ثمة أزهار صغيرة وأطياف
صغيرة ولكن الشتاء ظل باقياً فى حديقة العملاق الأنانى وحدها . ولم
تأبه الطيور بأن تصدح فيها بالغناء حيث أنه لم يكن هناك أطفال .
ونسيت الأشجار أن تزدهر . وذات مرة أطلت زهرة جميلة برأسها من
بين العشب غير أنها عندما أبصرت اللافتة اشتد حزنها على الأطفال إلى
الحد الذى انزلت معه عائدة إلى الأرض مرة أخرى وأخلدت إلى النوم .
أما الأشخاص الوحيدون الذين سروا فقد كانوا الثلج والصقيع . كانا

يتصايحان : «لقد نسى الربيع هذه الحديقة وعلى ذلك سنعيش هنا على مدار السنة» .

كسى الجليد العشب بمعطفه الأبيض الكبير ولون الصقيع جميع الأشجار باللون الفضى . ثم دعيا ربح الشمال إلى أن تبقى معهما فجاءت . كانت ربح الشمال متسريلة بالفراء ، وكانت تزمجر طوال اليوم حول الحديقة وتحطم أوعية المداخن وكانت تقول : «هذه بقعة تبعث على البهجة . ولا بد من أن تطلب إلى البرد أن يزورنا» . وهكذا جاء البرد . وفى كل يوم ، وطوال الثلاث ساعات ، كان يقع على سقف القلعة إلى أن حطم أغلب ألواحها الأردوازية ثم ركض حول الحديقة بأسرع ما يمكن . كان يلبس ثوباً رمادياً وكانت أنفاسه كالثلج .

كان العملاق الأنانى يقول : «لست أستطيع أن أفهم السبب فى أن الربيع يأتى متأخراً على هذا النحو وهو يجلس إلى النافذة وينظر إلى حديقته البيضاء الباردة : «أمل أن يحدث تغيير فى الطقس . . .» .

بيد أن الربيع لم يأت قط ولا الصيف . وسرعان ما منح الخريف فاكهة ذهبية لكل حديقة ، ولكنه لم يمنح شيئاً لحديقة العملاق . وكان الخريف يقول : «إنه بالغ الأناية» وعلى ذلك فقد ظل الشتاء مخيماً هناك على الدوام . ومالبت رياح الشمال والبرد والصقيع والثلج أن رقصت عبر الأشجار .

و ذات صباح كان العملاق يرقد مستقيظاً في فراشه حينما سمع
موسيقى جميلة . ولاحظ لأذنيه بالغة العذوبة إلى الحد الذي ظن معه
أنها لا بد أن تكون صادرة عن موسيقى الملك وهم يمرون . والواقع أنه
لم يكن سوى عصفور صغير يصدح بالغناء خارج نافذته ، غير أنه كان
قد مضى زمن بالغ الطول منذ سمع طائراً يصدح بالغناء في حديقته إلى
الحد الذي لاح له صوته معه أجمل موسيقى في العالم . وعند ذلك
توقف البُرد عن الرقص فوق رأسه وتوقفت ريح الشمال عن الزئير ،
وسرى إليه عطر جميل من خلال النافذة المفتوحة . قال العملاق :
«أعتقد أن الربيع قد أقبل في نهاية المطاف» . وقفز خارجاً من فراشه إلى
الخارج . فما الذي رآه ؟

رأى منظراً مدهشاً غاية الأدهاش . فمن خلال ثقب صغير في
الجدار ، كان الأطفال قد تسللوا وكانوا يجلسون بين أغصان الأشجار ،
وفي كل شجرة يمكنه أن يراها كان ثمة طفل صغير . كانت الأشجار
بالغة البهجة بأن تجد الأطفال مرة أخرى إلى الحد الذي غطت معه نفسها
بالأزهار وكانت تلوح بأذرعها في رفق من فوق رؤوس الأطفال .

وكانت الطيور تطير حول المكان وتزقزق في بهجة والأزهار تطل من
خلال العشب الأخضر وتضحك لقد كان منظراً جميلاً غاية الأمر أن
الشتاء كان مازال مخيماً في أحد الأركان . لقد كان ذلك هو أبعد ركن
من الحديقة ، وفيه كان يقف صبي صغير ، كان من الضالّة إلى الحد

الذى يمكنه معه أن يصل إلى أغصان الشجرة وان يتجول حولها وهو يبكى فى مرارة . وكانت الشجرة المسكينة ماتزال مغطاة بالصقيع والجليد، ورياح الشمال تهب وتزمر من فوقها . قالت الشجرة : «تسلق أيها الولد الصغير وحتت أغصانها إلى أدنى ما تستطيعه ولكن الولد كان أضال من أن يبلغها .

وذاب قلب العملاق إذ نظر حوله ، وقال : «كم كنت أنانياً ! الآن أعرف لماذا لم يكن الربيع يأتى إلى هنا . سأضع ذلك الولد المسكين على قمة الشجرة ثم أحطم الجدار ، وستكون حديقتى ملعباً للأطفال إلى الأبد» . لقد كان شديد الأسف حقيقة على ما فعله .

وهكذا زحف هابطاً وفتح الباب الأمامى برقة بالغة وخرج إلى الحديقة بيد أنه عندما أبصره الأطفال ، اشتد بهم الخوف إلى الحد الذى تراكضوا معه بعيداً ، وعاد الشتاء إلى الحديقة مرة أخرى . أما الولد الصغير فهو وحده الذى لم يرتعد لأن عينيه كانتا زاخرتين بالدموع إلى الحد الذى لم ير معه العملاق آتياً .

فتسلل العملاق من ورائه وأخذه برفق فى يده ووضع فوق الشجرة . وفى الحال تفتحت الشجرة عن الأزهار . وأقبلت الطيور تصدح بالغناء من فوقها ومد الولد الصغير ذراعيه وألقى بهما حول عنق العملاق وقبله . وعندئذ ما أبصر بقية الأطفال أن العملاق لم يعد شريراً ، عادوا يتراكضون ومعهم جاء الربيع . قال العملاق «لقد أصبحت الحديقة لكم

الآن أيها الأطفال الصغار» وتناول بلطة كبيرة وكسر الحائط . وعندما كان الناس ذاهبين إلى السوق فى الساعة الثانية عشرة وجدوا العملاق يلعب مع الأطفال فى أجمل حديقة رأوها طوال حياتهم .

وطوال اليوم ظلوا يلعبون حتى إذا جاء المساء أقبلوا على العملاق مزجين إليه تحية الوداع .

فقال : «ولكن أين رفيقكم الصغير » . إنه الصبي الذى وضعتة فوق الشجرة» لقد كان العملاق يحبه أكثر من غيره لأنه قبله فأجابه الأطفال : «لسنا نعلم . فقد مضى بعيداً» .

فقال العملاق : «لابد لكم من أن تقولوا له أن يكون على يقين من أمره وأن يأتى غداً» ولكن الأطفال قالوا إنهم لم يكونوا يعرفون أين يعيش وإنهم لم يروه من قبل ، فشعر العملاق بأنه حزين غاية الحزن . وفى كل أصيل صيف كانت المدرسة تغلق أبوابها وكان الأطفال يأتون ويلعبون مع العملاق ولكن الولد الصغير الذى كان العملاق يحبه لم ير قط بعد ذل .

كان العملاق بالغ الرفق بجميع الأطفال ومع ذلك كان يتوق إلى صديقه الصغير الأول وكثيراً ما كان يتحدث عنه ، وكان من عادته أن يقول : «كم أود أن أراه !» .

مضت السنين وتقدم العملاق فى السن وضعف : لم يعد بمقدوره أن يلعب أكثر من ذلك وهكذا جلس فى مقعد كبير ذى مساند وكان يرقب الأطفال وهم يمارسون ألعابهم ويعجب بحديقته . كان يقول : «إن لدى كثيراً من الأزهار الجميلة . بيد أن الأطفال هم أجمل الزهور جميعاً .

وذات صباح فى الشتاء أطل من نافذته إذ كان يرتدى ملابسه . لم يكن يكره الشتاء الآن ، لأنه كان يعلم كأنه لا يعدو أن يكون الربيع نائماً ، وأن الأزهار تستريح .

وعلى حين غرة حك عينيه فى دهشة ونظر ثم نظر . من المحقق أن ما رآه كان منظرأ مدهشاً . ففي أبعد ركن من الحديقة كان ثمة شجرة مكسوة تماماً بأزهار بيضاء جميلة وكانت أغصانها ذهبية ، والفاكهة الفضية تتدلى منها ، ومن تحتها وقف الولد الصغير الذى أحبه .

ركض العملاق هابطاً فى فرحة كبرى ومتجهاً إلى الحديقة وأسرع عبر العشب ثم أقرب من الطفل . وحين أقرب منه أحمر وجهه غضباً وقال :

«ترى من عساه يكون ذاك الذى جرؤ على أن يجرحك؟» ذلك أنه فوق راحتي يدي الطفل كان ثمة آثار لمسمارين ، وكانت آثار مسمارين على القدم الصغيرة .

فصاح العملاق : « ترى من عساه يكون ذاك الذى جرؤ على أن
يجرحك ؟ خبرنى حتى استل سيفى الكبير وأذبحه » . فأجابه الطفل :
« كلا . إنما هذه جراح الحب » .

فقال العملاق : « من عساک تكون ؟ » وحل به رعب غريب فانحنى
أمام الطفل الصغير .

وهنا ابتسم الطفل نعملاق وقال له : « لقد تركتني ألعب ذات مرة
فى حديقتك . واليوم ستأتى معى إلى حديقتى وهى الفردوس » .

وعندما ركض الأطفال فى ذلك الأصيل عشروا على العملاق يرقد
ميتاً تحت الشجرة وقد غطته الأزهار البيضاء من قمة رأسه إلى أخمص
قدميه . . .

٨ - النافذة المفتوحة

هـ . هـ . مونزو (ساقى)

«ستعود عمى فوراً ، يا مستر نتل» . قالتها شابة بالغة التملك لنفسها فى الخامسة عشرة ، «وفى عين الوقت ، ينبغى عليك أن تحاول وتتحملنى» .

وحال فرامتون نتل أن يقول الشئ الصحيح الذى يطيب ، فى الوقت المناسب ، من كبرياء ابنة الأخ ، لحظتها ، دون أن يخرج من حسابه - بلا موجب - العمه التى كانت مقبلة . وفى قرارة نفسه كان يشك ، أكثر منه فى أى وقت مضى ، فيما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية لمجموعة متتالية من الأغرأب تماماً ، خليقة بأن تقوم بالكثير لمساعدة العلاج العصبى ، الذى كان يفترض فيه أنه يمر به .

«أعلم كيف سيكون الأمر» قالتها أخته ، عندما كان يستعد للهجرة إلى هذا الملجأ الريفى ، «ستدفن نفسك هناك ، ولا تتحدث إلى حى ، وستسوء أعصابك عما كانت عليه فى أى يوم من الأيام . سأعطيك رسائل تقديم إلى كل من أعرفهم هناك . وقد كان بعضهم ، على قدر ما يمكننى أن أتذكر ، لطفاء تماماً» .

وتساءلت ابنة الأخ ، عندما حكمت بأنه قد حدث بينهم ما فيه الكفاية من الاتصال الصامت : «أتعرف كثيراً من الناس هنا ؟» فقال فرامتون : «لا أكاد أعرف أحداً . لقد كانت أختي مقيمة هنا ، في الأبرشية ، كما تعلمين ، منذ حوالي أربع سنوات خلت ، وقد أعطتني خطابات تقديم لبعض الناس هنا» .

قال هذه الجملة الأخيرة بنبرة أسف واضح . فاستأنفت الشابة الرابطة الجأش كلامها قائلة : «وعلى هذا فأنت ، من الناحية الفعلية ، لا تعرف شيئاً عن عمتي» .

فاعترف الزائر بقوله : «لست أعرف إلا أسمها وعنوانها» - وكان يتساءل عما إذا كانت مسز سايلتون متزوجة أو أرملة . كان ثمة شيء ، لا سبيل لتعريفه ، في الغرفة ، يوحى بمسكن رجل .

قالت الطفلة : «لقد حدثت مأساتها الكبرى منذ ثلاث سنوات . أتى منذ وقت أختك» .

فتساءل فرامتون : «مأساتها ؟» ذلك أن المآسى كانت تلوح في غير موضعها في هذه البقعة الريفية التي تعمها الراحة .

قالت ابنة الأخ وهي تشير إلى نافذة فرنسية واسعة كانت تتفتح على مريح : «قد تتساءل عن السبب في أننا نترك تلك النافذة مفتوحة ، على مصراعها ، في أصيل أكتوبر» .

فقال فرامتون : «إن الجوّ دافئ في هذا الوقت من السنة . ولكن ١٣٩ هل لتلك النافذة أى صلة بالمأساة ؟» .

«خارج تلك النافذة ، ومنذ ثلاث سنوات إلا يوماً ، خرج زوجها وأخواها الشابان لممارسة صيدهم اليومي . ولكنهم لم يعودوا قط . فعند عبورهم البطاح ، إلى أرض صيدهم وقنصهم الأثيرة ، حوصروا هم الثلاثة في قطعة خداعة من المستنقعات . حدث هذا في ذلك الصيف المبلول المخيف ، كما تعلم ، وما لبثت الأماكن التي كانت آمنة ، في غير ذلك من السنوات ، أن أنهارت فجاء ، ودون تحذير . لم تستعد أجسادهم قط . وإن ذلك هو الجزء المروع من الموضوع» . وهنا فقد صوت الطفلة نغمته المتمالكة نفسها ، وغداً إنسانياً مهترأ .

«إن العمة المسكينة تظن دائماً أنهم سيعودون يوماً ما ، هم والكلب البنى الصغير، الذى ضاع معهم، ويسيرون إلى تلك النافذة ، كما اعتادوا أن يفعلوا . وهذا هو السبب فى أن النافذة تترك مفتوحة ، كل مساء ، إلى أن يخيم الغروب تماماً ، يا للعمة العزيزة المسكينة . إنها كثيراً ما وصفت لى كيف خرجوا ، زوجها بمعطفه الأبيض ، ضد الماء ، على ذراعه ، ورونى أخوها الصغير يغنى «برقى ، لماذا تقفزين ؟» ، على نحو ما كان يقول دائماً ليغيظها ، لأنها كانت تقول إن هذا الأمر يضغط على أعصابها . أتعرف أئننى أحياناً ، فى الأماسى الساكنة الهادئة كهذه الأمسية ، أكاد أشعر شعوراً مروعاً بأنهم سيدخلون جميعاً من تلك النافذة ؟» .

وانفلتت منصرفة ، برجفة صغيرة وكان مما بعث الراحة في نفس فرامتون أن دخلت العمة إلى الحجرة بدوامة من الاعتذارات عن تأخرها في الظهور .

وقالت : «أرجو أن تكون فيرا قد سلتك» .

فقال فرامتون : «لقد كانت شائقة جداً» .

فقالت مسز سابلتون بخفة : «آمل ألا تكون النافذة المفتوحة تضايقتك . سيعود زوجي وأخوای مباشرة ، من الصيد ، وهم يأتون دائما على هذا النحو . لقد خرجوا للقنص في المستنقعات اليوم ، ولهذا فسيعيثون في أبسطي فساداً . هذا طبعكم أيها الرجال ، أليس كذلك ؟» .

وتحدثت بابتهاج عن الصيد ، والبط المنتظر في الشتاء . ولم يكن هذا كله ، في نظر فرامتون ، إلا أمراً مروعاً . وقام بمجهود مستميت ، وإن لم ينجح فيه إلا جزئياً ، ليحول دفة الحديث إلى موضوع أقل ترويعاً . كان يدرك أن مضيفته لم تكن تعطيه إلا جزءاً من انتباهها ، وأن عينيها كانتا تمران به ، على نحو مستمر ، متجهتين إلى النافذة المفتوحة ، والمرح الواقع خلفها ، وكان من سوء الحظ ، يقينا أن يتفق ميعاد زيارته مع هذه الذكرى السنوية المأسوية .

«إن الأطباء متفقون في حثي على الراحة التامة ، وعدم التعرض للأفعال الذهني ، وتجنب أي شيء له طبيعة التدريب البدني العنيف .

قالها فرامتون ، الذى كان يناضل تحت ظل الوهم الواسع الانتشار ، على نحو محتمل ، والذاهب إلى أن الأغراب تماماً ومعارف المصادفة متعطشون إلى أبسط التفصيلات عن أوجاع المرء ، ونواحي ضعفه ، وسببها وعلاجها ، واستمر قائلاً : «أما فى مسألة الأكل ، فأنهم ليسوا على مثل هذه الدرجة من الاتفاق» .

«لا ؟» قالتها مسز سابلتون بصوت لم يعد أن حل محل تثاروبة فى اللحظة الأخيرة . وفجأة ، عاد إليها الانتباه اليقظ - ولكن دون أن تكون منتبهة لما كان فرامتون يقوله .

وصاحت : «هاهم أولاء ، قد وصلوا أخيراً ! وصلوا فى ميعاد الشاى بالضبط . أولاً يلوحون كما لو كان الطين يغطيهم حتى العينين !» ارتعش فرامتون ارتعاشاً يسيراً ، وتحول إلى ابنة الأخ بنظرة يراد بها أن تنقل الفهم المتعاطف . وكانت الطفلة تحديق بناظرها من النافذة المفتوحة ، وثمة رعب دائخ فى عينيها . وفى صدمة باردة من الخوف الذى لا يسمى ، دار فرامتون فى مقعده ، ونظر فى نفس الاتجاه . فى الشفق الآخذ فى الاظلام ، كانت ثلاثة أشباح تسير عبر المرج ، نحو النافذة . وكانوا جميعاً يحملون بنادق تحت أذرعهم ، بينما كان أحدهم - بالإضافة إلى ذلك - مثقلاً بمعطف أبيض ، يتدلى على كتفه ، ولبث كلب أسمر متعب قرب كعوبهم ودون ضجة اقتربوا من البيت وعند ذلك

تغنى صوت شاب خشن ، فى قلب الغروب ، «قلت لك يا برتى ، لماذا تثبين ؟» .

فخطف فرامتون عصاه وقبعته . كان باب الصلاة ، والممشى المغطى بالحصاء ، والبوابة الأمامية أشياء لمسحها ، دون وضوح ، فى تراجع المندفع ، واضطر راكب عجلة ، سائر فى الطريق ، إلى أن يدخل فى السور ، ليتجنب الاصطدام الوشيك .

«هانحن أولاء ، ياعزيزتى» . قالها حامل المعطف الماكينتوش الأبيض ، مقبلاً من عبر النافذة . «إن الطين يغطينا ، ولكن أغلبه جاف . من ذا الذى اندفع خارجاً حين أتينا ؟» . فقالت مسز سابلتون : إنه رجل بلغ الغاية فى غرابة الأطوار . لم يكن يتحدث إلا عن أمراضه ، وقد أندفع خارجاً ، دون كلمة وداع أو اعتذار ، حين وصلتكم . لقد كان المرء خليقاً بأن يظن أنه رأى شيئاً .

فقالت ابنة الأخ بهدوء : «أظن أن السبب هو الكلب . فقد أخبرنى بأن الكلاب توقع الرعب فى نفسه . لقد طورد مرة فى مقبرة ، فى مكان ما على ضفاف نهر الكنج ، بواسطة مجموعة من الكلاب المنبوذين ، وكان عليه أن يقضى الليلة فى قبر محفور حديثاً ، بينما تلك المخلوقات تنبح وتزمر وتتصاعد من أفواهها الرغوة من فوقه إن هذا كاف لأن يجعل أى إنسان يفقد أعصابه .

كانت متخصصة فى رواية القصص الخيالية من وحي اللحظة .

٩ - الحرب

لويجى بيراندلو

كان على المسافرين من روما بقطار الليل السريع أن يتوقفوا حتى الفجر فى محطة نايبانو الصغيرة ليستأنفوا رحلتهم فى قطار محلى يربط الخط الرئيسى «بسلمونا» .

وبدت إحدى عربات الدرجة الثانية مزدحمة وملثمة بالدخان بعد أن قضى فيها خمسة أشخاص ليلتهم ، وفى الفجر اندفعت إلى هذه العربة امرأة ضخمة فى ثياب سوداء - كحزمة لا شكل لها - وخلفها زوجها يزفر ويئن ، رجل ضئيل الجسم نحيل معتل ، وجهه شاحب شحوب الموت ، وعيناه صغيرتان لامعتان ، وفى حركاته خجل وارتباك .

وبعد أن جلس فى مقعده شكر المسافرين فى أدب على مساعدتهم لزوجته ، وإفساحهم مكاناً لها ، ثم استدار إلى المرأة وحاول أن يصلح من ياقة معطفها وهو يسألها فى رقة .

- كيف أنت الآن يا عزيزتى ؟

وبدلاً من أن تجيب الزوجة جذبت ياقة معطفها ثانية حتى حازت
عينها لكي تخفى وجهها .

وتمتم الزوج فى ابتسامة حزينة «عالم قدر» .

وشعر أن من واجبه أن يشرح لمرافقيه فى السفر أن زوجته تستحق
الشفقة لأن الحرب ستأخذ منها ابناً الوحيد وهو صبي فى العشرين من
عمره ، كرس له كل منهما حياته بأكملها ، حتى أنهما تركا بيتهما فى
سلمونا وتبعاه إلى روما حيث يذهب يطلب العلم ، ثم سمحا له بالتطوع
فى الحرب ظناً منهما أن السلطات لن ترسل به إلى الجبهة قبل ست
شهور على الأقل . والآن تلقيا منه فجأة برقية ينبئهما فيها أنه سيرحل فى
خلال أيام ، ويطلب منهما الحضور لتوديعه .

وجلست المرأة تنتفض وتلتوى وتهمهم ما بين الحين والحين
كالحيوان الجريح ، كانت على ثقة من أن هذا التفسير من جانب زوجها
لن يثير عطفاً فى نفوس هؤلاء الناس الذين لا بد وأنهم يمرون بنفس
المحنة التى تمر بها . وقال واحد منهم كان يصغى باهتمام واضح .

- اشكرى الله لأن ابنك سيرحل اليوم . إن ابنى سافر إلى الجبهة فى
أول يوم من أيام الحرب وقد عاد مرتين مجروحاً ثم أعيد من جديد
إلى الجبهة .

وقال مسافر آخر .

- وماذا عنى أنا ؟! إن لى ولدين فى الجبهة ، وأبناء أخى الثلاثة .
وتجرأ الزوج وقال :
- قد يكون هذا صحيحاً ولكن فى حالتنا إنه ابننا الوحيد .
- وما الفرق ! إنك تستطيع أن تفسد ابنك الوحيد ، بإغراقه بالاهتمام . ولكنك لا تستطيع أن تحبه أكثر من أبنائك الآخرين ، إذا كان لك أبناء آخرون ، إن الحب الأبوى ليس رغيفاً يقسم إلى قطع توزع بالتساوى بين الأبناء ، إن الأب يعطى كل حبه لكل واحد من أبنائه من غير تمييز ، سواء أكانوا واحداً أم عشرة ، وإن كنت لليوم أقاسى من أجل اثنين من أبنائى ، فلا يعنى هذا أنى أقاسى النصف من أجل واحد منهم بل أنا فى الواقع أقاسى الضعف .
- وتنهد الزوج فى ارتباك .
- هذا صحيح .. ولكن افرض - لا أراك الله مكروهاً - أن لوالد ابنين فى الجبهة ، وفقد واحداً منهما ، ولكن بقى الثانى ليعزيه ... بينما ...
- وأجاب المسافر فى غضب .
- نعم ابن يعزيه ، ابن يجب أن يعيش من أجله ، بينما يستطيع الأب الذى يموت ابن الوحيد أن يموت وراءه ويخلص من عذابه . أى

الموقفين أسوأ؟ ألا ترى أن حالتي أسوأ من حالتك؟
وقطع الحديث مسافر آخر ، رجل بدين أحمر الوجه ، بعينين
رماديتين محمرتين قائلاً .

- كلام فارغ !

كان يلهث وفى عينيه البارزتين تبدو قوة كامنة لحيوية لا يمكن
السيطرة عليها قوة يكاد جسمه الضعيف يقصر عن احتوائها .

- كلام فارغ !

كرر الرجل هذه الكلمات وهو يغطى فمه بيده ليخفى سنتين
مفقودتين فى مقدمة فمه .

- كلام فارغ ! وهل نعطي أولادنا الحياة لمصلحتنا الخاصة !

وفى حزن تطلع إليه بقية المسافرين ، وتنهّد الرجل الذى ذهب ابنه
إلى الجبهة فى أول يوم من أيام الحرب وقال .

- أنت على حق ، أولادنا ليسوا ملكاً لنا ، أولادنا ملك للوطن . . .

فأجاب الرجل البدين فى سخريّة .

- ها ! وهل نفكر فى الوطن عندما نهب أولادنا الحياة ! . أن أولادنا

يولدون لأنهم . . . لأنهم يجب أن يولدوا . وعندما يخرجون إلى

الحياة يأخذون معهم حياتنا نحن وهذه هى الحقيقة . نحن ملك

لهم وهم ليسوا ملكاً لنا . عندما يبلغ الواحد منهم العشرين من عمره يصبح مثل ما كنا عليه في سنه ، كان لكل منا أب وكانت له أم ، ولكن إلى جانب الأب والأم كانت هناك أشياء كثيرة تملأ حياتنا ، البنات والسجائر والأفكار الخيالية ربطات العنق الجديدة . . والوطن طبعاً . . الوطن الذي كنا سنجيب نداءه في سن العشرين حتى لو اعترض الأب واعترضت الأم . والآن ، ونحن في هذه السن الكبيرة ، حبنا لوطننا كبير ، ولكن أكبر منه حبنا لأولادنا من منا لا يتمنى أن يأخذ مكان ابنه في الجبهة لو استطاع ؟

وساد السكون وأحنى كل المجودين رأسه دلالة على الموافقة ، واستمر الرجل البدين في كلامه ؟

- فلم لا نقدر عواطف أبنائنا وهم في سن العشرين ؟ أليس من الطبيعي أن يكون حبهم للوطن في هذه السن أعظم من حبهم لنا ؟ وأنا بالطبع أتكلم عن الأولاد المهذبين ، أليس من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك ، وهم ينظرون إلينا نظرتهم إلى شيوخ ليس بوسعهم أن يتحركوا من مكانهم ، ولا يملكون إلا أن يلزموا بيوتهم وإذا كان الوطن موجوداً . . إذا كان ضرورة طبيعية ، كالعيش لا بد لنا أن نأكل منه لكي لا نموت من الجوع ، فلا بد إذا من أن يذهب الناس للدفاع عنه ، وأولادنا يذهبون وهم في العشرين إنهم إن ماتوا يموتون في انفعال وسعادة - أنا أتكلم طبعاً عن الأولاد المهذبين .

ودعنا الآن نزن الأمر ، إذا مات الإنسان شاباً سعيداً ، دون أن يعاني النواحي القبيحة فى الحياة ، ملل الحياة وتفاهتها ؛ والمرارة الناتجة عن خيبة الأمل ، فما الذى تريده خيراً من ذلك ؟ يجب على كل منا أن يجفف دموعه . يجب على كل منا أن يضحك كما أفعل أنا ، أو على الأقل أن يشكر الله - كما أفعل أنا - لأن ابنى قبل أن يموت أرسل إلى يقول أنه راض سعيد لأن حياته ستنتهى خير نهاية كان يتمناها لنفسه . ولهذا لا ألبس ملابس الحداد كما ترون .

وهز معطفه الفاتح وكأنه يريهم لونه . وكانت شفته العليا ترتعش فوق أسنانه المفقودة ، وعلى عينيه الجاملتين غشاء من دموع ، ثم أنهى كلامه بضحكات رفيعة أشبه بالعويل .
ووافق الجميع على كلامه .

وكانت المرأة التى تكومت فى ركن من الديوان ، مختفية فى طيات معطفها تجلس وتنصت . كانت هذه المرأة قد حاولت خلال الشهر الثلاثة السابقة أن تجد فى كلام زوجها وأصدقائها شيئاً يسرى عنها حزنها العميق ، شيئاً يريها كيف تستطيع أم أن تسلم بإرسال أبنها ، لا إلى الموت بل حتى إلى خطر محتمل ، لكنها لم تجد بين الكلمات الكثيرة التى قيلت كلمة واحدة تعزيها ، وتضاعف حزنها حين حسبت أن إنساناً ما لا يشاركها مشاعرها .

ولكن الآن . . . الآن نفذت كلمات المسافر إلى قلبها وأدهشتها وأدركت فجأة أن الآخرين لم يكونوا مخطئين ولم يعجزوا عن فهمها بل هي التي كانت مخطئة . هي التي لم تستطع أن تسمو إلى مستوى الآباء والأمهات الذين استطاعوا أن يسلموا دون أن يبكوا ، يسلموا لا برحيل أبنائهم فحسب بل بموتهم . ورفعت رأسها ، ومالت إلى الأمام ، تحاول أن تنصت باهتمام كبير إلى التفاصيل التي يرويها الرجل البدين عن ابنه ، كيف مات ، وكيف سقط كبطل من أجل ملكه ووطنه ، سعيداً وبلا ندم . وخيل إليها أنها قد دخلت فجأة عالماً لا عهد لها به . واشتد سرورها حين بدأ المسافرون يهتفون الأب الشجاع الذي استطاع أن يتحدث عن موت ابنه برباطة جأش هكذا .

ثم فجأة وكأنها لم تسمع شيئاً مما قيل ، وكأنها تستيقظ من حلم ، فجأة التفتت إلى الرجل البدين وسألته .
- إذا . . . فقد مات ابنك حقاً ؟

وتطلع إليها الجميع واستدار الرجل البدين أيضاً ، ونظر إليها ، وثبت في وجهها عينيه الكبيرتين المنبججتين الرماديتين وقد كستهما طبقة رقيقة من الدموع . وحاول أن يجيب ، ولكن الكلمات خائته ونظر إليها واستمر ينظر إليها ، كما لو كان قد أدرك إذ ذاك فقط ، بعد هذا السؤال الأحمق الخال من الكياسة ، وأدرك فجأة وأخيراً أن ابنه قد مات حقاً ، ذهب إلى الأبد - دون رجعة ، وتقلص وجهه وانقلبت ملامحه بشكل

مخيف ثم انتزع منديلاً من جيبيه في سرعة . وأثار دهشة الجميع حين
انخرط في عويل مؤلم يهز القلب - عويل جارف لا يمكن للإنسان أن
يسيطر عليه .

١٠ - بيت مسكون

فرجينيا وولف

أياً كان وقت استيقاظك فسوف تسمع صوت أغلاق باب ما ، كانا
يسيران من غرفة إلى غرفة ، وقد تشابكت أيديهما ، فيرفعان هذا الشيء
ويفتحان ذلك حتى يتأكدا - كانا زوجا من الأشباح .

قالت «تركناه هنا» . وأضاف هو «وهنا أيضاً» . وغمغمت «فى
الطابق العلوى» وهمس «وفى الحديقة» . وقالوا معا «لابد من الهدوء وإلا
أيقظناهم» .

ولكنكما لم توقظانا . كلا فالمرء عادة ما يقول «إنهما يبحيان عنده
ولذلك يفتحان الستارة» ثم يمضى فى القراءة - صفحة أو صفحتين -
وأحياناً ما يقول واثقاً «لقد وجداه الآن» ويوقف القلم الرصاص على
الهامش . وأحياناً يتعب من القراءة فينهض ويذهب ليتأكد بنفسه . أن
المنزل خاو تماماً والأبواب مفتوحة ولا تسمع إلا هديل الحمام والرضى
يفيض منه ، وهدير النورج وهو يدور فى المزرعة القريبة «لماذا أتيت إلى

هنا ؟ كنت أريد أن أعثر على أى شئ ؟» كانت يداى خاويتين . «ربما كان فى الطابق العلوى» كان التفاح فى غرفة السطح . وهكذا أهبط مرة أخرى . ما تزال الحديقة ساكنة كعهدها ، غير أن الكتاب قد تسرب بين نصال الكلا .

ولكنهما قد عثرا عليه فى غرفة الجلوس . لا يستطيع أحد أن يراهما وبدأت فى زجاج السنافذة صورة التفاح وصورة الورود . وكانت الأوراق تبدو خضراء فى الزجاج . فإذا تحركا فى غرفة الجلوس استدار التفاح فبدأ جانبه الأصفر . ومع ذلك فإنه بعد لحظة واحدة - إذا فتح الباب - يبدو مبعثراً على الأرضية ومعلقاً على الجدران ومدلى من السقف - ماذا ؟ كانت يداى خاويتين . ومر ظل بلبل على البساط - ومن أعمق آبار الصمت استمدت الحمامة البرية هدبل صوتها «أمان أمان أمان» كان نبض المنزل يدق فى رفق . «الكنز الدفين ، الغرفة . . .» وتوقف النبض .
أكان هذا هو الكنز الدفين ؟

وبعد لحظة خبا الضوء . هناك فى الحديقة إذن ؟ ولكن الشجرات قد نسجت ثوباً من الظلام حول شعاع حائر من أشعة الشمس . كان الشعاع الذى أردته يتوهج دائماً خلف الزجاج وهجاً رهيفاً رقيقاً بارداً وقد غاص تحت السطح . وكان الموت هو الزجاج ، وقد حال بيننا الموت إذ جاء أولاً إلى المرأة منذ مئات السنين فتركت المنزل وأغلقت كل النوافذ ، وأظلمت كل الحجرات . وترك هو المنزل وتركها واتجه شمالاً واتجه

شرقاً ورأى النجوم مقلوبة فى سماء الجنوب . ثم عاد يطلب المنزل فوجده مهجوراً تحت المرتفعات . «أمان أمان أمان» كان نبض المنزل يدق فى سرور . «الكنز لك» وتزأر الريح فوق الطريق . وتميل رءوس الأشجار هائمة فى المطر . ولكن شعاع المصباح يسقط مباشرة من النافذة . وتتوهج الشمعة وهى ثابتة ساكنة . أن الشبحين يجولان فى المنزل ويفتحان النوافذ ويتهامسان حتى لا نستيقظ وهما ينشدان السعادة .

تقول «كنت أنام هنا» ويضيف هو : «قبلات بلا حصر» . «نصحور فى الصباح والفضة بين الأشجار» «فى الطابق العلوى» . «وفى الحديثة» - «وعندما يأتى الصيف» و «موسم الثلوج فى الشتاء» - و يترامى صوت أغلاق الأبواب على البعد ، خافقة برفق كأنها نبضات القلب .

ويقتربان ثم يتوقفان فى مدخل الباب . وتسكن الريح وينزلق المطر كاللجين على الزجاج . وتعشى أعيننا ، ولا نسمع الخطوات إلى جوارنا ، ولا نرى المرأة وهى تنشر عباءة الأشباح التى ترتديها . وتحيط يدها هو بالفانوس لتحمى اللهب من الهواء . ونخرج أنفاسه قائلة «انظرى . أنهم نائمون . والحب على شفاههم» ينحيان وقد رفعا مصباحهما الفضى فوق رءوسنا وجعلنا ينظران إلينا نظرة طويلة وعميقة . ويتوقفان طويلاً بينما تهب الريح مباشرة على المصباح فيميل اللهب قليلاً . وتتمر أشعة القمر الطليقة على الأرضية والجدران ثم تلتقى فتصنع الوجهين

المائلين - الوجهين المتفكرين - الوجهين اللذين يتفحصان النائمين
بحثاً عن السعادة الخبيثة .

«أمان أمان» - ويدق قلب المنزل في فخر . ويتأوه هو «سنوات
طويلة» ولقد وجدتنى مرة أخرى . وتغمغم هي «هنا نائمة ، أو وأنا أقرأ
في الحديقة أو أضحك أو أدحرج التفاح في غرفة السطح . هنا تركنا
كنزنا» ثم ينحنيان ثم يشع نورهما فيرفع الأجفان من فوق عيوني «أمان
أمان أمان !» ويدق نبض المنزل دقا عنيفا . وأستيقظ وأنا أصبح -
«أهذا أذن كنتكما الدفين ؟ النور في القلب» .

١١ - عصفور كناريا لواحد

أرست همنجواى

مر القطار بسرعة فائقة ببیت من الطوب الأحمر به حديقة ونخيل وموائد فى الظل من الجهة الأخرى البحر ، ثم غير القطار اتجاهه ماراً بكميات متراكمة من الطوب الأحمر والطين ، ولم يعد البحر يبدو إلا فى فترات منقطعة بعيداً تحيط به الصخور . وقالت السيدة الأمريكية التي شاركتنى وزوجتى فى ديوان من القطار !

- لقد اشتريت هذا العصفور فى باليرمو ، كنت على ظهر السفينة وسمح لنا بقضاء ساعة واحدة فى الميناء وطلب البائع الثمن بالدولار فدفعت له دولاراً ونصف ، إن غناه جميل للغاية .

وكان الجو شديد الحرارة فى ديوان عربة النوم الذى جلسنا فيه ولم تتسرب نسمة واحدة من النافذة المفتوحة . وأسدلت السيدة الأمريكية ستار النافذة ولم يعد البحر يبدو ولا فى فترات متقطعة من الجهة الأخرى زجاج ، وبعد الزجاج ممر وبعد الممر نافذة وخارج النافذة أشجار معفرة وطريق قدر وكروم مستوية وتلال حجرية فى لون الرماد .

وكان الدخان يتصاعد من مداخن طويلة كثيرة حين دخل القطار
مارسيليا وأبطأ ثم اتخذ طريقاً من بين الطرق الكثيرة في المحطة .
وتوقف القطار نصف ساعة في مارسيليا واشترت السيدة الأمريكية نسخة
من (الديلي ميلى) Daily Mail وتمشت على الرصيف ولكنها لم تذهب
بعيداً، ففي مدينة كان حيث توقف القطار اثني عشر دقيقة قام القطار دون
إشارة رحيل ولحقته بالكاد . وكانت السيدة الأمريكية صماء بعض
الشيء، وكانت متوجسة . . ربما كانت إشارات الرحيل تدق دون أن
تسمعها .

وترك القطار مارسيليا ولم تبد ساحات التحويل وادخنة المصانع
فحسب بل إذا التفت إلى الخلف وجدت مدينة مارسيليا والميناء وخلفه
تلال صخرية وعلى المية الأشعة الأخيرة للشمس النارية . وحين بدأ
الظلام يخيم على الكون مر القطار بمنزل يحترق وقد أوقفت السيارات في
وسط الطريق وأخرجت الأسرة وغيرها من المتاع من البيت ونثرت في
الحقل من حوله ، ووقف جمع من الناس يرقب البيت وهو يحترق .
وبعد أن ساد الظلام دخل القطار أفينون واستقل بعض الناس القطار ونزل
منه بعض الناس ، ومن أكشاك الجرائد اشترى الفرنسيون العائدون إلى
باريس جرائد اليوم الفرنسية ، وعلى رصيف المحطة وقف جنود زنوج
يرتدون ثياباً بنية طوال القامة تلمع وجوههم بالقرب من نور المصابيح
الكهربائية وكانت وجوههم شديدة السواد وكانوا من الطول بحيث لم

يستطيعوا التحديق فى المارة . وترك القطار أفينون والزواج على المحطة .
ومعهم شاويش أبيض قمى وفى داخل ديوان النوم كان الكمسارى قد أنزل
الأسرة الثلاثة من مكانها فى الحائط وأعدّها للنوم ، وفى الليل استقلت
السيدة الأمريكية على السرير دون أن تنام لأن القطار كان قطارا سريعا
وكانت تخشى السرعة أثناء الليل . وفى الممر المؤدى إلى الحمام .
بعيدا عن تيار الهواء ، وضعت السيدة عصفور الكناريا وغطت قفصه
بقطعة من القماش . وخارج الديوان نور أزرق والقطار يجرى بسرعة فانتة
طول الليل والسيدة الأمريكية مستقلة دون أن تنام تنتظر حادثه
تنتظر حطاما .

وفى الصباح كان القطار قد اقترب من باريس وبعد أن خرجت
السيدة الأمريكية من الحمام ورفعت عن قفص الكناريا الغطاء ذهبت إلى
المطعم لتناول أظارها وعندما عادت إلى ديوان النوم كانت الأسرة قد
عادت إلى مكانها فى الحائط وتحولت إلى مقاعد ، وكان عصفور الكناريا
يهز ريشه فى ضوء الشمس التى دخلت من النافذة المفتوحة ، وكان القطار
قد أصبح أقرب إلى باريس .

وقالت السيدة الأمريكية .

أنه يحب الشمس ، وبعد قليل سيغنى .

وهز العصفور ريشه ثم نقره بمنقاره وتابعت السيدة الأمريكية

كلامها :

- لقد أحببت الطيور دائماً وسأخذه معى إلى البيت ، إلى ابنتى الصغيرة ، فقد اشتريته خصيصاً من أجلها .

وغرد العصفور ووقف ريش عنقه وعاد ينقر ريشه بمنقاره وعبر القطار نهراً ومر بغابة تناولتها يد الإنسان بالتهذيب والتشذيب . ثم مر بكثير من المدن الصغيرة خارج باريس وفى هذه المدن عربات للترام وإعلانات كبيرة عن سلع تجارية على الحائط فى مواجهة القطار . وبدأ كل ما مر به القطار فى وجوم كما لو كان يترقب حطاماً . ولمدة دقائق لم أصغ للسيدة الأمريكية وهى تتبادل الحديث مع زوجتى ، ثم لفت الحديث انتباهى حين سألت زوجتى :

- وهل زوجك أمريكى أيضاً ؟

وقالت زوجتى :

- نعم كالانا أمريكى .

- لقد حسبتكما انجليزيين .

وقالت زوجتى :

- أوه لا .

وقالت أنا :

- لعل ذلك لأنى ألبس حمالات للبنطلون ، (واستخدمت الكلمة الانجليزية بدلاً من الكلمة الأمريكية فى كلمة حمالات) لأحتفظ

بالشخصية الإنجليزية التي أضفتها على ولم تسمع السيدة الأمريكية . كانت صماء فى الوقع ، تقرأ الشفافة ، ولم أكن قد نظرت إليها ، كنت أنظر خارج النافذة ، واستمرت هى تتكلم مع زوجتى .

- أنا سعيدة لأنكما أمريكيين؛ إن الرجال الأمريكيين هم خير الأزواج.

وسكنت السيدة الأمريكية قليلاً ثم تابعت كلامها .

- أتعرفين أن هذا كان السبب فى رحيلى من أوروبا ، لقد أحببت ابنتى رجلاً من فيفى ، أحبته فى جنون . . . وبالطبع رحلت بها بعيداً عنه .

وسألت زوجتى :

- وهل استطاعت ابنتك أن تتغلب على عاطفتها ؟

وقالت السيدة الأمريكية :

- لا . لا أظن ، فهى لا تريد أن تأكل ولا تريد أن تنام وقد حاولت بكل وسيلة تسليتها فلم تسل . إنها لا تهتم بشئ . ومع ذلك كيف أَرْضَى بزواجها من أجنبى ! لقد قال لى مرة صديق قديم أنه من المستحيل أن يسعد زوج أجنبى فتاة أمريكية .

وقالت زوجتى :

* لا ، لا أظن أن ذلك ممكن .

وأبدت السيدة الأمريكية إعجابها بمعطف زوجتى الذى اشترته من محل أزياء فى شارع Saint Honore بباريس واتضح أن السيدة الأمريكية تتعامل مع نفس المحل منذ عشرين عاماً . والمحل يحتفظ بمقاييس جسمها ، وتتولى بائعة تعرفها وتعرف ذوقها إرسال الثياب إليها من أمريكا . وتصل الثياب إلى مكتب البريد القريب من منزلها بنيويورك ، ولا تدفع السيدة رسوم جمارك باهظة . إذ أنهم حين يعاينون الثياب فى مكتب البريد يجدونها بسيطة المظهر للغاية لا تميزها الزينة التى تجعل الثياب تبدو غالية . وقبل البائعة الحالية - تبريز - كانت هناك بائعة تسمى إميلي ، وفى خلال العشرين عاماً لم يكن هناك سوى ، هاتين البائعتين . أما محل الأزياء فهو لم يتغير ، بينما تغيرت الأسعار ، ارتفعت ولكن تبادل العملة يعادل هذا الارتفاع . والآن أخذ مقاييس ابنتها أيضاً فهى قد استكملت نموها ، وليس هناك خوف أن تتغير هذه المقاييس .

وبدأ القطار يدخل باريس وكانت الأرض ممهدة ولكن العشب لم ينم . وعلى الخطوط الحديدية وقفت عربات كثيرة ، عربات بنية غامقة للأكل وعربات بنية غامقة للنوم تقوم إلى روما فى الساعة الخامسة من مساء تلك الليلة إذا كان القطار مارال يقوم فى الخامسة وعلى العربات كتب باريس - روما . وعربات بمقاعد على السطح تروح وتجئ بين

الضواحي وباريس فى ساعات محددة والناس يملئون المقاعد والأسطح
كما لو كان الحال مازال كما كان عليه ومرت حوائط بيضاء ونوافذ كثيرة
وكل شئ واجم ينتظر حطاماً . وقالت السيدة الأمريكية لزوجتى وأنا
أنزل الحقائق .

- إن الأمريكيين هم خير الأزواج . خير للمرأة إلا تتزوج على
الإطلاق إن لم تتزوج بأمرىكى .
وسألته زوجتى .

- منذ متى تركت مدينة فيفى

- فى الخريف القادم تنقضى على تركى لها سنتان . أن لها هذا
العصفور . أنه لا بنتى ، لقد اشتريته من أجلها .
وقالت زوجتى .

- والرجل الذى أحبته ابنتك . هل هو سويسرى ؟

- وأجابت السيدة الأمريكية .

- نعم كان من عائلة كبيرة فى فيفى يدرس لكى يكون مهندسا . وقد
تقابلا فى فيفى واعتادا أن يمضيا وقتاً طويلاً وهما يتمشيان معا .
وقالت زوجتى :

- أنا أعرف فيفى . لقد أمضينا فيها شهر العسل .

- هل كنت هناك حقاً . لا بد أنكما قضيتما وقتاً ممتعاً . . . بالطبع لم يدر بخلدي أنها ستقع في غرامه .
- وقالت زوجتي :
- كانت فيفي بلدة جميلة .
- وقالت السيدة الأمريكية :
- نعم أليست جميلة حقاً . وأين أقمتما هناك ؟
- في فندق التيجان الثلاثة .
- وقالت السيدة الأمريكية :
- إنه فندق ممتاز .
- وقالت زوجتي :
- فعلاً . كانت لنا غرفة بديعة . وفي الخريف كان الريف جميلاً .
- هل كنتما هناك في الخريف ؟
- وأجابت زوجتي :
- نعم كنا هناك في الخريف .
- ومرونا بعربات ثلاثة استحالت حطاماً وقد تناثرت منها الشظايا
- وتقوست سقوفها وقلت :

- أنظروا . . . انظروا هذا الحطام .

ونظرت السيدة الأمريكية ولم تر سوى العربة الأخيرة . وقالت :

- لقد كنت أخشى وقوع ذلك طول الليل كثيراً ما تنتابنى هواجس ما تلبث أن تتحقق ، لن أسافر بعد اليوم فى قطار سريع ليلاً لا بد أن هناك قطارات مريحة لا تمشى بمثل هذه السرعة .

وان القطار قد دلف إلى ظلام محطة حاردى ليون ثم توقف واتجه الحمالون إلى النوافذ واسلمت الحقائق إلى حمال من النافذة ونزلنا إلى عتبه المحطة الممتدة الطويلة ، واسلمت السيدة نفسها لموظف فى شركة كوك للسياحة قال لها (دقيقة واحدة ياسيدتى سأبحث عن أسمك) .

وأحضر الحمال عربة وكوم عليها الحقائق وودعت زوجتى السيدة الأمريكية وودعتها بدورى ، السيدة الأمريكية التى وجد موظف كوك باسمها فى صفحة مكتوبة بالآلة الكاتبة فى حزمة من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة أعادها إلى جيبه بعد أن فرغ منها .

وتبعنا الحال ومعه العربة على طول الطريق الصخرى المجاور للقطار ، وفى النهاية كان هناك بوابة ورجل أخذ التذاكر .

وكنا قررنا الانفصال ، أنا وزوجتى ، كنا عائدتين إلى باريس ليجد كل منا مسكناً مستقلاً . . .

١٢ - الرجل العجوز عند الجسر

ارنست همنجواى

على جانب الطريق جلس رجل عجوز فى ملابس متربة للغاية وعلى عينيه نظارة بحافة معدنية . وكان هناك جسر متنقل عبر النهر والعربات وسيارات النقل والرجال والنساء يعبرون الجسر . والعربات التى تجرها البغال تترنح على الشاطئ المنحدر الذى يؤدى إلى الجسر والجنود يساعدها على التقدم بدفع العجلات ، وسيارات النقل تطحن الطريق لا تلوى على شئ تريد أن تخرج من المكان والفلاحون يغوصون فى التراب . ولكن الرجل العجوز جلس هناك دون أن يتحرك . كان تعباً ، لا يستطيع أن يذهب أبعد مما ذهب .

وكان على أن أعبر الجسر ، وأطمئن على سلامته من الناحية الأخرى وأتبين إلى أى مدى تقدم العدد ، وفرغت من مهمتى وعدت عبر الجسر ، كان عدد العربات أقل الآن مما كان عليه من قبل ، وعدد المشاة قليلاً للغاية ، ولكن الرجل العجوز كان مازال فى مكانه .

وسألته :

- من أين أتيت ؟

وسألته :

- وماهى مبادئ السياسة ؟

وقال :

- ليس لى مبادئ سياسية ، إننى فى السادسة والسبعين من عمرى ،
وقد مشيت اثنى عشر كيلو متراً ولا أظنى أستطيع أن أذهب إلى
أبعد مما ذهبت .

فقلت :

- ليس هذا المكان ملائماً للتوقف - هناك فى آخر الطريق عربات تنقل
الناس إلى تورتوزا .

وقال :

- سأنتظر قليلاً ، ثم أذهب إلى أين تذهب هذه العربات ؟

وقلت :

- فى اتجاه «برشلونة» .

وقال :

- أنا لا أعرف أحداً فى هذا الاتجاه ، ولكنى شاكر جداً أشكرك
كثيراً .

وكنت أتطلع إلى الجسر وإلى ريف دلنا «الأبرو» الذى يشبه ريف أفريقيا ، وأتساءل كم من الوقت سيمضى قبل أن نتمكن من رؤية العدو وأنا أتصنت طيلة الوقت للأصوات الأولى التى تشير ، لذلك الحدث الغامض الذى يسمونه الاتصال ، والرجل العجوز مازال فى مكانه .

وسألته :

- وماهى هذه الحيوانات ؟

وقال هو :

- كانت كلها ثلاثة حيوانات، معزتان وقطة ثم أربع أزواج من الحمام.

وسألته :

- وكان عليك أن تتركهم ؟

- نعم . بسبب المدفعية ، لقد أمرنى الضابط بالرحيل بسبب المدفعية .

وقلت وأنا أرقب الجانب البعيد من الجسر حيث أسرعرت العربات الأخيرة وهى تنزل إلى الشاطئ المنخفض .

- أو ليس لك عائلة ؟

- لا . ليس لى إلا الحيوانات التى ذكرتها ، وبالطبع تستطيع القطة أن تعنى بنفسها وأن تبحث عن طعامها ، ولكنى لا أستطيع التفكير فيما سيحدث للحيوانات الأخرى .

ونظر إلى دون أن يبدو على وجهه أى تعبير وإن بدا عليه الإرهاق
وقال وكأنه لا بد له وأن يتقاسم قلقه مع إنسان ما .

- القطة تستطيع أن تعنى بنفسها ، أنا متأكدة من ذلك ، ولا داعى
للقلق من أجل القطة ، ولكن الحيوانات الأخرى ما رأيك ؟ ما
عساه يحدث للحيوانات الأخرى ؟

- ربما لن يصيبهم شئ .

- أتظن ذلك ؟

وقلت وأنا أنظر إلى الطرف الآخر من الجسر حيث لم تعد تبدو أى
عربات .

- ولم لا ؟

- لقد طلب إلى أن أرحل بسبب المدفعية فما عساها هي أن تفعل
تحت نيران المدفعية ؟

وسألته :

- هل تركت قفص الحمام مفتوحاً ؟

- نعم .

- إذا سيطير الحمام !

وقال :

- نعم من المؤكد أنه سيطير ، ولكن بقية الحيوانات ، من الأفضل
ألا أفكر فى بقية الحيوانات .

وحاولت أن أحثه على الرحيل :

لو كنت منك لرحلت ؛ قم الآن وحاول أن تمشى .

- أشكرك .

وقام على قدميه ، نوح من جانب إلى جانب ثم جلس من جديد فى
التراب وقال فى خمول :

- كنت أعتنى بالحيوانات ، لم أرتكب ذنباً ، كنت فقط أعتنى
بالحيوانات .

ولكنه كان يحدث نفسه ولم يكن يوجه الكلام لى .

ولم يكن بوسعى أن أفعل من أجله شيئاً . كان اليوم هو أحد عيد
الفصح ، والقوات الفاشستية تتقدم نحو نهر «الأبرو» وكان اليوم يوماً
معتماً بسحاب منخفض يحجب السماء ولذلك لم تظهر طائرات العدو فى
الجو بعد . . . هذه الحقيقة ، وأن القوط يمكنها أن تعنى بنفسها كانت
كل ما يمكن أن يواتى ذلك الرجل العجوز من حظ .

١٣ - سعادة

كاترين مانسفيلد

بالرغم من أن «بيرتايونج» كانت في الثلاثين من عمرها فمازالت تعاودها لحظات مثل هذه اللحظة ، لحظات تود فيها لو استطاعت أن تجرى بدلاً من أن تمشى وأن تقفز من على الرصيف وإليه في خطوات راقصة وأن ترمى بشئ في الهواء وتلتقطه ، وأن تقف وتضحك . . على ماذا ؟ على لا شئ ، لا شئ على الإطلاق .

وماذا عساك أن تفعل إذا كنت في الثلاثين من عمرك وشعرت فجأة وأنت تقف تجاه بيتك بشعور من السعادة يملكك ، سعادة غامرة ، كما لو كنت قد اختزنت في جسدك قطعة مشرقة من شمس ذلك الأصيل ، قطعة تتأجج في صدرك وترسل بومضاتها إلى كل ذرة من جسمك ؟

آه أليس هناك من وسيلة للتعبير عن مثل هذا الشعور دون أن يتهمك الناس بأنك مخمور أو مجنون ؟ يا لهذه المدينة الحمقاء ! ولماذا يعطينا الله جسدا إذا كان لابد لنا أن نحفظ به مقيداً ؟

وقالت «بيرتا» «لمارى» عندما فتحت لها الباب .

- هل عادت المربية :
- نعم ياسيدتى .
- وهل أتت الفاكهة ؟
- نعم ياسيدتى ، كل شئ معد .
- إحضرى الفاكهة إلى غرفة المائدة . سأرتبها قبل أن أصعد إلى الدور الثانى .

وكانت حجرة المائدة معتمة وباردة . ولكن «بارتا» خلعت معطفها رغم ذلك ، ضاقت بضغطه على جسمها . ومس الهواء الباردة ذراعيها .

ولكن فى صدرها مازالت تتأجج تلك الجمره الملهبه وترسل بومضاتها ، إنها لا تكاد تحملها ، وتخشى أن تنفس حتى لا تزداد اشتعالاً ومع ذلك تنفست تنفساً عميقاً ، وتخشى أن تنظر فى المرأة الباردة ومع ذلك نظرت ، وعكست المرأة امرأة متألقه بشفتين مبتسمتين ، شفتين مرتجفتين وعينين سوداوتين كبيرتين . امرأة تنصت إلى شئ ما وتنتظر شيئاً رائعاً . . تعرف أنه سيحدث . . حتما .

وأحضرت «مارى» الفاكهة على صينية ومعها إناء بلورى وصحن أرق اختلطت زرقته بالبياض وكأنه قد غمس فى اللبن .

- هل أضحى النور يا سيدتى ؟

- لا ، أشكرك ، إنى أستطيع أن أرى بوضوح .

وكان من بين الفاكهة يوسفى وتفاح تشرب لونه بلون الفراولة الوردى وكمثرى ذهبية ناعمة كالحرير ، وعنب أبيض يتألق كالفضة ، وعنقود من العنب الوردى اشترته خصيصاً ليتمشى مع لون السجاد فى حجرة المائدة ، وقد يبدو هذا مضحكاً ولكنها فى الواقع اشترته لهذا الهدف .

وعندما فرغت من ترتيب الفاكهة فى هرمين كبيرين ، تراجعت بعيداً عن المائدة لترى المنظر العام ، وان المنظر غريباً للغاية . بدت المائدة الداكنة اللون وكأنها قد ذابت فى العتمة ، وبدا الإناء البلورى والصحن الأزرق ، وكأنما يسبحان فى الهواء ، وكان من الطبيعى أن يبدو لها كل ذلك ، فى حالتها النفسية الراهنة ، رائعاً روعة لا يكاد يصدقها الخيال . وابتدأت تضحك ، وقالت وهى تمسك بحقيبتها ومعطفها (لا . لا ، لاشك أنى سأصاب بالهستيريا) . وجرت إلى الدور الثانى إلى حجرة ابنتها الصغيرة .

جلست المربية على كرسى واطئ وهى تطعم الطفلة عقب أن أخذت حمامها ، وكانت الطفلة ترتدى فستاناً أبيض «وچاكت» من الصوف الأزرق ، وعندما تطلعت إلى الباب ورأت أمها بدأت تقفز .

وقالت المريية :

والآن ياطفلتى العزيزة ، اهدئى قليلاً وتناولى طعامك .

قالت المريية ذلك وضمت شفيتها بطريقة فهمت منها برتا أنها
دخلت حجرة أبتتها فى وقت غير مناسب .

وقالت برتا :

- أرجو أن لا تكون الطفلة قد أتعبتك فى نزهة العصر

وهمست المريية :

- لقد كانت لطيفة للغاية ، ذهبنا إلى الحديقة وجلست فى كرسى
وأخرجتها من العربة وجاء كلب كبير ووضع رأسه على حجرى
وبدأت هى تلعب فى أذنه وتلويها . أوه كم كانت بودى أن
تشاهدها إذ ذاك :

وأرادت برتا أن تسأل المريية ألم يكن من الخطورة السماح لطفلة
بمعاكسة كلب غريب ، ولكنها لم تجرؤ على توجيه هذا السؤال ووقفت
ترقب المريية والطفلة معاً . وقفت ترقبهما ويدها إلى جانبها طفلة فقيرة
ترقب طفلة غنية وهى تلعب بعروس .

وتطلعت إليها الطفلة مرة ثانية وحدقت فيها النظر وابتسمت بطريقة
ساحرة جعلت برتا تصيح :

- أرجوك يا نانى . دعيني أكمل إطعامها ، بينما تفرغين أنت من تنظيف الحمام .

وقالت المربية وهى ما تزال تهمس :

- أنت تدركين يا سيدتى أن الشخص الذى يطعم الطفلة لا ينبغي أن يتغير ، وأن التغير قد يحدث لها شعوراً بعدم الاستقرار وربما يثيرها .

أليس هذا مضحكاً ؟ وما فائدة إنجاب طفلة إذا كان ولا بد أن تبقى الطفلة دائماً فى ذراعى امرأة أخرى ؟

وقالت برتا :

- أرجوك لا بد لى من إطعامها .

وفى غضب تخلت المربية عن الطفلة وهى تقول

- والآن لا تثيريها بعد العشاء ، فأنت تفعلين ذلك دائماً وأعانى أنا بعد ذلك وقتاً طويلاً .

الحمد لله . لقد خرجت المربية إلى الحمام .

وقالت برتا والطفلة تستند إليها .

- والآن يا حبيبتي الغالية أنت لى .

وبدأت الطفلة تأكل ، وعندما فرغ الحساء استدارت برتا إلى المدفأة

وقالت وهي تقبل الطفلة :

- أنت لطيفة جداً وأنا أحبك .

وفى الواقع كانت برتا تحب الطفلة حباً شديداً . تحب عنقها وهي منحنية إلى الأمام وكعبي قدميها اللذيين ولمعتها الشفافة فى ضوء المدفأة، تحبها إلى حد أعاد إليها شعورها بالسعادة ، ومرة أخرى عجزت عن التعبير عن ذلك الشعور ولم تعرف ماذا تفعل به .

وقالت المربية وقد عادت بانتصار وأمسكت بطفلتها :

- مكالمة تليفونية لك يا سيدتى .

وجرت برتا إلى التليفون . . كان هارى . .

- أهذا أنت يا برتا ؟ سأأأأأأأ ، سأأأأأأأ وأأأأأأ وأأأأأأ ولكن
أأأأأأ العشاء عشرة دقائق . أتفقنا

- أتفقنا . . . أوه هارى .

ماذا تريد أن تقول ؟ لم يكن لديها ما تقوله ولكنها أرادت أن تطيل
الاتصال به دقيقة أخرى ، لم تكن تستطيع أن تصبح كالحمقاء ، ألم
يكن يوماً رائعاً ؟ وقال هارى .

- ماذا تريدین ؟

وقالت «برتا» :

- لاشئ .. ووضعت سماعة التليفون وهى تلحن قيود المدينة التى تحول بينها وبين التعبير عن مشاعرها .

كانت برتا فى انتظار ضيوف على العشاء ، نورمان نيت وزوجته وهو مهتم بالمسرح وهى بالديكور الداخلى ، وايدى وارنر وكان قد طبع أخيراً كتاباً من الشعر ، وامرأة اكتشفتها بيرتا اسمها بيرل فولتون ولم تكن بيرتا تعرف مهنة بيرل ، كانت قد قابلتها فى النادى وشعرت بميل إليها ، نفس الميل الذى تشعر به نحو كل سيدة جميلة يحيط جمالها جو من الغموض والشئ المثير حقاً هو أن برتا لم تستطيع أن تنهم بيرل رغم أنهما تقابلتا عدة مرات وتبادلتا الحديث، وكانت مس فولتون صريحة إلى حد ما صراحة نادرة رائعة ولكن هذا الحد كان قائماً لا تتجاوزه مطلقاً .

ولكن هل هناك شئ ما بعد هذا الحد ؟ قال هارى يوما «لا» ووصف مس فولتون بأنها مملة «وباردة ككل النساء الشقراوات وربما تكون مصابة بفقر فى العقل» ولكن برتا لم توافقه إذ ذاك .

لا يا هارى ، إن الطريقة التى تجلس بها وقد مالت برأسها قليلاً تنبئ أنها تخفى شيئاً ولا بد أن اكتشف أنا هذا الشئ» .

وأجاب هارى ساعتها :

ومن المحتمل أنها تخفى معدة منتفخة .

وكان قد اعتاد على معاكسة بيرتا بمثل هذه الإجابات وكانت برتا تحب منه ذلك وتعجب به من أجل ذلك لسبب لا تعرفه . واتجهت برتا إلى حجرة المائدة واشعلت النار في المدفأة ، وبدأت تلتقط الوسائد التي رتبها ماري بعناية وتلقى بها على الكراسي كييفما اتفق وأحدث ذلك تغييراً كبيراً ، فدهبت الحياة إلى الغرفة وبينما هي تلقى بالوسادة الأخيرة دهشت إذ وجدت نفسها تحتضنها في حرارة ، ولكنها لم تطفأ النار في صدرها ، أبداً بالعكس .

وكانت نافذة حجرة المائدة تؤدي إلى شرفة تطل على الحديقة ، في نهاية الحديقة إلى جانب الحائط انبثقت شجرة طويلة ، شجرة كمثرى رفيعة في أوج أزدهارها ، وقفت ساكنة وكأنما زرقة السماء المشوبة بالانخضرار قد أضفت عليها السكون ، وشعرت برتا حتى على هذا البعد أن ليس في الشجرة برعماً واحداً لم يفتح ولا ورقة واحدة ذابلة . وفي أحواض الزهور بدأت أعناق التوليب المحملة بالأزهار الحمراء والزرقاء تميل على العتمة ، وزحفت في الممر قطة رمادية اللون وهي تجر بطنه ، المنتفحة ، وخلفها قطة سوداء - ظلها . وأثار الظل وهو يتبع القطة في سرعة وإصرار . أثار في برتا رجفة غريبة .

وتراجعت من الشرفة وبدأت تذرع الغرفة ، ما أشد رائحة زهر النسرين في الحجرة الدافئة ؛ أشد مما ينبغي . . لا . ورمت بنفسها على

مقعد كما لو كانت قد غلبت على أمرها وضغطت على عينيها بيديها وهي تهمس «أنا سعيدة . . سعيدة جداً» .

وكانت ترى بعينيها المغلقتين شجرة الكمثرى الجميلة ببراعدها المتفتحة تفتحا كاملاً تقف كرمز لحياتها .

فعلاً أنها تملك كل شيء ، فهي شابة وحبها لهاري لم يتغير عما كان عليه منذ البداية وهما متفقان في كل شيء ، ولها طفلة جديدة بالعبادة ، وشؤونهما المالية مستقرة ، ولها بيت وحديقة جميلة للغاية وأصدقاء - أصدقاء كتاب وشعراء وفنانون وهناك الكتب والموسيقى ولديها حائكة ثياب رائعة وستسافر وزوجها إلى الخارج ؛ الصيف ولديها طاهى ممتاز .

واعتدلت في جلستها وهي تقول «أنا حمقاء . . .» وشعر
كما لو كانت قد سكرت . . . لا بد وأنه الربيع .

نعم هو الربيع . . . والآن كان التعب قد ألح عليها بحيث لم ترغب في الصعود إلى الدور الثانى لارتداء ملابسها .
ثوب أبيض وعقد وحذاء أخضر .

ولقد صممت على ارتداء هذا الطقم قبل أن تقف في شرفة حجرة الطعام بساعات . . وأحدث عقد بيرتا حفيضا وهي تدخل الصالة فى رقة وتقبل مسز نورمان نايت التى كانت تخلع معطفها ، ودق الجرس ودخل أدى وارين فى حالته المعتادة من الحزن العميق . قال :

- أرجو أن لا أكون قد أخطأت فى المنزل .
وأشرقت برتا .
- لا أظنك قد أخطأت أو أرجو ذلك .
- لقد مررت بتجربة فظيعة مع سواق التاكسى . لقد كان غريباً للغاية، ولم استطع إيقافه وكلما طلبت إليه الوقوف ازدادت سرعته وفى ضوء القمر بدأ الرجل الغريب وقد انحنى على العجلة برأسه المسطحة مخيفاً للغاية .
- وتظاهر أدى بالارتجاف وهو يزيح عن عنقه وشاحاً كبيراً من الحرير الأبيض ولاحظت برتا أن شرابه أبيض بدوره وقالت .
- ولكن هذا فظيع .
- وقال أدى وهو يتبعها إلى حجرة الجلوس .
- نعم لقد كان حقاً أمراً فظيلاً ، لقد رأيت نفسى فى رحلة إلى الخلود فى تاكسى لا يعترف بالوقت .
- كان يعرف عائلة نايت بل كان قد وعد نايت بكتابة مسرحية للمسرح الذى يعتزم افتتاحه .
- وقال نورمان نايت .
- حسناً يا أدى . . . ماهى أخبار الرواية ؟

وقالت مسز نورمان :

- ولقد وفقت فى اختيار الشراب يا مستر وارين .
- وأجاب (أدى) وهو يحدق النظر فى ساقيه :
- هل أعجب حقتك ؟ يخيل إلى أنه ازداد بياضا بعد طلوع القمر .
- وأدار وجهه الحزين إلى «برتا» .
- لقد طلع القمر أتعرفين ؟
- وأرادت «برتا» أن تصيح ، أرادت أن تقول : نعم أنا متأكدة أنه طلع ، أنا متأكدة تماما .
- إنه جذاب للغاية ، وكذلك مسز «نايت» وهى متكورة فى جلستها وكذلك «نايت» وهو يدخن سيجارته ويلقى بالرماد فى المنفضة ويقول :
- لماذا تأخر العريس .
- ها هو ذا .
- وانفتح الباب الخارجى وانطرق وهو يقفل ، وصاح هارى .
- هالو ، سأكون معكم بعد خمس دقائق .
- وجرى صاعدا السلم ، ولم تستطيع «برتا» أن تخفى ابتسامتها ، إنه يحب أن يفعل كل شئ فى اللحظة الأخيرة .

وكان هارى يحب الحياة حباً جمياً وكانت «برتا» تعجب بذلك
الاتجاه فيه . وكانت أيضاً تفهم حبه للنزال ، وما من شئ أو إنسان
يواجهه حتى يتبدى له لكى يختبر مدى قوته وشجاعته ، حتى أنه يندفع
أحياناً إلى معركة ، ويبدو مضحكاً لمن لا يعرفه جيداً ، ولكنها هي
تعرفه وتفهمه .

وتحدثت «برتا» وضحكت ونسيت تماماً أن «بيرل فولتون» لم
تحضر ، حتى دخل «هارى» وقال :

- طبعاً لم تحضر «مس فولتون» بعد ، تماماً كما توقعت وقالت
«برتا» .

- هل نسيت يا ترى ؟

وقال «هارى» :

- أظن ذلك ، هل لديها تليفون ؟

وقالت «برتا»

- هاهو تاكسى يقف بالباب .

ابتسمت ابتسامة من يملك شيئاً ويفخر به ، نفس الابتسامة التي
تبسمها كلما كان اكتشافها جديداً وغامضاً ، وأضافت .

- أنها تعيش فى التاكسى .

- وقال «هارى» فى برود وهو يقرع الجرس يطلب العشاء .
- سيؤدى بها ذلك حتما إلى السمنة ، والسمنة خطر داهم يهدد الشقراوات وتطلعت إليه «برتا» وهى تضحك محذرة .
- هارى ! أرجوك . ومرت دقيقة ، دقيقة أخرى قصيرة وهم ينتظرون ويضحكون ويتكلمون فى انطلاق واطمئنان أكثر قليلاً مما ينبغى . ثم دخلت ، مس فولتون ، وكأنها صبت من فضة ، وعلى رأسها غطاء فضى يضئ شعرها الذهبى الشاحب ، دخلت مبتسمة وقد مالت رأسها قليلاً وهى تقول :
- هل تأخرت ؟
- وقالت برتا :
- أبدا تفضلى .
- وأمسكت بذراعها ودخلت بها إلى حجرة المائدة .
- لمسة هذا الذراع الرطيب . لماذا أجمت فى قلب «برتا» نار السعادة فتوهجت ؟

ولم تنظر «مس فلتون» إلى «برتا» ولكنها نادراً ما تنظر إلى الناس نظرة مباشرة فرموشها الطويلة ترقد على عينيها ، والبسمة الغريبة الغير

مكتملة تروح وتجيء على شفيتها كما لو كانت تعيش بالسمع لا بالنظر ،
ولكن «برتا» أدركت أن «بيرل فلتون» تمر بنفس الحالة النفسية التي تمر
هى بها ، أدركت ذلك كما لو كانتا قد تبادلتا نظرة طويلة ودية مليئة
بالمعاني ، كما لو كانتا قد قالتا إحداهما للأخرى «وأنت أيضاً ؟» .

والآخرون «مسترومسز نايت» و «أيدى» «هارى» ملاحظتهم ملاحظتهم
تعلو وتهبط ، يمسحون أطراف الشفاه بالفوط ، ويقطعون العيش ،
ويبدلون الشوك والسكاكين ويتكلمون .

- لقد قابلتها فى المسرح وهى لم تقص شعرها فحسب بل أجرت
عملية تجميل . واقتطعت جزءاً كبيراً من فخذها وذراعيها وعنقها
وأنفها المسكين أيضاً .

- أليست على علاقة مع مايكل أدت ؟

- الرجل الذى كتب مسرحية حب وأسنان صناعية ؟

- لقد أراد أن يكتب مسرحية لمسرحى الجديد من فصل واحد رجل
واحد ينوى الإنتحار ، ثم يزن الأسباب التى تدفعه إلى الإنتحار
بتلك التى تصده عنه وعندما يوشك أن يتخذ القرار النهائى وقبل أن
يتخذه تسقط الستار .

وماذا عساه أن يسمى هذه المسرحية ؟ مخص معوى ؟

أنهم لا يقاسمونها شهورها ولكنهم أعزاء .. أعزاء .. وهى تحب أن تراهم يأكلون على مائدتها وتحب أن تقدم لهم أطيب الطعام والشراب وكان «هارى» يتمتع بعشائه وكان من عادته أن يتحدث عن الطعام وأن يجد لذة فى الحديث عن حبه للحم المحار الأبيض ولجيلاتى الفسدى الأخضر البارد ، كجفون الراقصات المصريات ، وعندما نظر إليها وقال

- «برتا» هذا النوع من الحلو جميل للغاية ، كادت تبكى كالطفل من شدة سرورها . لماذا تشعر الليلة بكل ذلك الحنان تجاه العالم بأكمله؟ كل شئ جميل . كل شئ فى موضعه . كل ما يحدث يملاً من جديد كأس سعادتهما المترعة . وفى عقلها مازالت صورة شجرة الكمثرى منطبعة لابد أنها فضية الآن . فضية فى ضوء القمر . فضية «كمس فولتون» التى جلست تدير حبة يوسفى بين أصابعها الرقيقة الشاحبة وكأن نورا ينبعث منها .

والشئ الخارق ، الشئ العجيب الذى لا تستطيع أن تفسره هو كيف استطاعت هى أن تخمن حالة مس فلتون النفسية بهذه السرعة وبهذه الدقة؟ لأنها لم تشك لحظة فى أنها على حق فى تخمينها . ومع ذلك على أى أساس بنت هذا التخمين ؟ على لاشئ وقالت «برتا» لنفسها «أظن أن هذا الاتصال الروحى يحدث نادراً بين النساء ولكنه لا يحدث

أبدأً بين الرجال . ولكنها قد تعطيني إشارة تؤكد صحة شعوري وأنا أعد القهوة في حجرة الإستقبال» ولم تعرف ماذا تقصد بذلك ولم تستطع أن تتصور ماذا سيحدث بعد ذلك ، وبينما كانت برتا تفكر هكذا رأت نفسها تتكلم وتضحك . كان لابد أن تتكلم لكي تكتم رغبتها في الضحك .

وأخيراً انتهى العشاء . وقالت «برتا» :

— تعالوا أريكم آلة القهوة الجديدة .

وقال هارى :

— أننا نشترى آلة قهوة جديدة مرة كل أسبوعين .

وأمسكت «مسز نايت» بذراع «برتا» وتبعثها «مس فولتون» ورأسها منحنية . وكانت النار قد خبت في حجرة الإستقبال تاركة وميضاً أحمر .
وقالت مس «فولتون» .

— لا تضيئ النور لحظة . إن الحجرة جميلة هكذا .

وانكمشت إلى جانب المدفأة ، وقالت «برتا» لنفسها «إنها تشعر بالبرد دائماً . طبعاً دون جاكنتها الصوف الحمراء» وفي تلك اللحظة أعطت «مس فولتون» «لبرتا» الإشارة المنتظرة ، قالتا في صوت نائم دافئ :

— هل عندك حديقة ؟

وجاء ذلك جميلاً منها ، ولم تستطع «برتا» إلا أن تطيع وعبرت
الحجرة إلى باب الشرفة وأزاحت الستار عنه وفتحت الباب على مصراعيه
وقالت وهي تتنفس في صعوبة «ها هي» .

ووقفت المرأتان جنباً إلى جنب ترقبان الشجرة الرقيقة المثمرة .
وبالرغم من أنها كانت ساكنة للغاية إلا أنها بدت كلهيب شمعة يمتد
ويعلو ويرتجف في الهواء الصحو ، ويستطيل كلما أطلتا النظر حتى يكاد
يلمس حافة القمر الفضى المستدير .

كما طالت وقفتهما إذ ذاك ؟ كلتاهما ؟ كما لو كانت هذه الدائرة من
النور السماوي قد أسرتهما في نطاقها ؟ كم طالت وقفتهما ، تفهم
إحدهما الأخرى وكأنهما مخلوقتان من عالم آخر تعجبان لم وجدتا في
الأرض بهذا الكنز من السعادة التي تتأجج في صدريهما وتتساقط في زهور
فضية من شعريهما وأيديهما ؟

كم وقفنا على هذه الحالة ؟ دهرأ أم لحظة ؟ وهل همست «مس
فولتون» قائلة «نعم ذلك تماماً» أن تخيلت «برتا» أنها همست بذلك .

وانبعث النور الكهربائي فجأة وأعدت «مسز نايت» القهوة وقال لها
«هارى» :

- لا ياعزيزتى لا تسألينى عن طفلى فأنا لا أراها مطلقاً ، ولن أبداً
بالاهتمام بها حتى تتخذ لنفسها عشيقاً .

وأزاح «مستر نايت» المونو كل عن عينيه ثم وضعه من جديد ،
وشرب «إدى وارين» القهوة ووضع القدح والألم يرتسم على وجهه وكأنه
وجد فيه عقرباً .

- إنى أود أن أعطي مجالاً للكتاب ، وأنا أعتقد أن «لندن» مليئة
بالأفكار لمسرحيات لم تكتب ، وكل ما أريد أن أقوله هو : ها كم
المسرح فتقدموا .

- أتعرفين ياعزيزتى ، سأقوم بعملية «ديكور» فى منزل «جاكوب ناان»
وتغرينى فكرة استخدام رسم السمك المقلى كأساس «للديكور»
فتكون ظهور الكراسى على شكل المقلاة بينما تزين الستائر رسوم
للبطاطس المحمر بالبرودرى .

- المشكلة بالنسبة لكتابنا أنهم مازالوا رومانتيكيين .

- قصيدة مربعة عن فتاة اغتصبها شحاذ بلا أنف فى غابة صغيرة
وغرقت «مس فولتون» فى أعماق الكراسى ومر «هارى» بالسجائر ؛
وحين وقف أمام «مس فولتون» قال بجفاف «مصرى؟ تركى ؟
فرجينى؟» أدركت «برتا» أنه يكرهها وأدركت أيضاً أن «مس
فولتون» قد شعرت بهذه الكراهية ؛ وغضبت حين قالت «أشكرك
لن أدخن» .

وقالت «برتا» فى عقلها .

- أرجوك يا هارى لا تكرهها ؛ أنت مخطئ فى حقها ، إنها رائعة .
رائعة ؛ وبالإضافة إلى ذلك كيف تشعر بالكراهية لشخص يعنى
الكثير بالنسبة إلى ؟ سأحاول أن أشرح لك الليلة ونحن فى السرير
ما مر بينى وبينها والشعور الذى تقاسمناه أنا وهى .

وعند هذه الكلمات الأخيرة قفزت فكرة عجيبة بل ورهيبية إلى عقل
«برت» وابتسمت لها هذه الفكرة العمياء همست فى أذنها : حالا حالا
سيخرج هؤلاء الناس ؛ وسيصبح البيت ساكناً ، وستخبو الأنوار وأنت
وهو مع بعض ، على أفراد فى الغرفة المظلمة ، وفى السرير الدافئ .

وقفزت برتا من مقعدها وجرت إلى البيانو وصاحت .

- من المؤسف أن أحداً لا يلعب البيانو .

لأول مرة فى حياتها تشتهى «برت» يونج» زوجها .

كانت تحبه ، كانت بالطبع تحبه من كل الوجه . ولكن لا من هذا
الوجه . وقد أدركت فى بداية رواجهما أنه يختلف عنها ، وكثيراً ما ناقشا
الموضوع وحين اكتشفت أنها باردة سبب الاكتشاف لها قلقاً مريعاً فى
بادئ الأمر ثم زال قلقها تدريجياً .

ولكن الآن . . فى حرارة . . فى حرارة واضطربت الدنيا فى جسدها
المشتاق وقالت «مسز نايت» .

«لأبد لنا من الانصراف يا عزيزتى» .

وقالت «برتا» :

- سأصحبكم إلى الصلاة ، لقد أسعدنى وجودكم معنا .
وقال هارى .

- كأساً من الويسكى قبل أن تنصرف يا «نايت» .

- كلا ، أشكرك ياعزيزى .

وضغطت برتا على يد «نايت» شاكرة وهى تصافحه وصاحت من
على السلم الخارجى .. «ليلة سعيدة .. مع السلامة» . وكأن روحها
تودعهما لآخر مرة .

- إذا ستركب جزءاً من الطريق معى .

- سأكون شاكراً إن لم أواجه رحلة طويلة فى التاكسى وحدى بعد
تجربتى المخيفة .

- إذا سأذهب لارتداء معطفى .

ومشت «مس فولتون» فى اتجاه الصلاة وتبعتها «برتا» وكاد «هارى»
يدفعها وهو يمر بها ويسبقها خلف مس فولتون ويقول :

- دعينى أساعدك فى ارتداء معطفك .

وتركته «برتا» يذهب وحده وأدركت أنه ندم على وقاحته مع مس فولتون ، كم هو طفل فى بعض تصرفاته ، طفل منطلق وعلى سجيته وبقيت هى وأدى بجانب المدفأة .

وقال «أدى» فى صوت ناعم :

- هل قرأت قصيدة «بلك» الجديدة «قائمة طعام» ؟ أنها رائعة للغاية ، هل لديك نسخة من مجموعته الأخيرة ؟ بودى أن أريك القصيدة .

وقالت «برتا» :

- نعم لدى نسخة .

ومشت فى خفة إلى مائدة تواجه حجرة الاستقبال وخلفها أدى يمشى دون أن يحدث ضجة وأمسكت بالكتاب الصغير وأعطته له دون أن تحدث صوتاً ، وبينما انهمك هو فى البحث عن القصيدة أدارت هى رأسها إلى الصالة ورأت . . . «هارى» يمس بمعطف «مس فولتون» و «مس فولتون» قد أعطته ظهرها وأحنت رأسها ، ورمى بالمعطف جانبا وأحاط كتفها بيديه وأدارها إليه فى عنف وقالت شفتاه «أنا أعبدك» ووضعت «مس فولتون» أصابعها الفضية على خديه وابتسمت ابتسامتها الساهية وارتجفت فتحتا أنف «هارى» وتكور فمه فى تكشيرة كريهة وهو يهمس «باكر» وبجفونها قالت «مس فولتون» «نعم» وقال «أدى» .

- هاهى القصيدة . لماذا يكون الحساء دائماً حساء الطماطم ؟ أليس فى هذا السطر واقعية عميقة ؟ ألا تشعرين بذلك ؟ أن حساء الطماطم خالد بشكل مخيف .
- وقال «هارى» بصوت مرتفع للغاية وهو فى الصلاة .
- هل أطلب لك تاكسى بالتليفون ؟
- وقالت «مس فولتون» :
- لا ضرورة لذلك .
- واقتربت من «برتا» وقدمت لها أصابعها الرقيقة .
- طابت ليلتك . أشكرك كثيراً .
- وقالت «برتا» :
- طابت ليلتك .
- وبقيت «مس فولتون» محتفظة بيد «برتا» وهى تهمس .
- ما أجمل شجرتك ، شجرة الكمثرى .
- ثم ذهبت و «أدى» يتبعها كالقط الأسود يتبع القط الرمادى .
- وقال «هارى» وهو فى غاية التماسك والهدوء .

١٤ - د شكرا يا مدام ،

لأنجستون هيوز

كانت سيدة ضخمة وكانت تحمل حقيبة يد ضخمة تحتوى على كل شئ عدا المطرقة والمسامير ! وكانت الحقيبة تتدلى من كتفها بحزام جلدى طويل . وبينما كانت تسير وحدها والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء إذ جرى صبي خلفها وحاول اختطاف حقيبتها . وانقطع الحزام حين شده الصبي من الخلف ولكن ثقل الصبي وثقل الحقيبة معاً أفقدها توازنه وهكذا فبدلاً من أن يولى الأدبار بأقصى سرعة (كما كان يتمنى) ، وقع على ظهره فوق الرصيف وارتفعت قدماء فى الهواء . والتفت السيدة الضخمة وركلته ركلة مباشرة فى مؤخرته - وكان يرتدى سراويل جينز زرقاء - ثم انحنى وأمسكت بتلابيب الصبي قابضة على فتحة قميصه وظلت تهزه حتى أصطكت أسنانه .

وقالت السيدة : «وطى ! جيب الشنطة يا ولد ! حطها هنا» ، كانت لا تزال تمسكه لكنها أنحنت حتى تتيح له أن يأتى بحقيبة يدها ثم قالت : «هيه . . ما نشش مكسوف من نفسك ؟» .

كانت لا تزال تمسكه بتلابيبه - ورد الصبي «فعلاً» .

- سأطفى الأنوار .

«شجرتك الجميلة . شجرة الكمثرى - شجرة الكمثرى»
وجرت «برتا» إلي الشرفة وفتحت مصراعها وصاحت .

- ياإلهى . . . ماذا سيحدث الآن ؟

ولكن شجرة الكمثرى كانت جميلة كما كانت دائماً ومليئة بالشمار
وساكنة كشأنها دائماً .

وقالت السيدة : «عملت كده ليه ؟» .

وقال الصبي : «ما كنتش قصدي»

وقالت : «كذاب !» .

كان بالطريق عدد من المارة فتطلع البعض إلى ما يجرى وظل البعض واقفاً .

وقالت السيدة : «إذا سبتك حتجى ؟»

ورد الصبي : «طبعاً» .

وقالت السيدة : «يبقى موش حاسييك» . وظلت قابضة على قميصه .

وهمس الصبي «حقك على يا مدام أنا آسف . . .»

- كده كده ! ووشك وسخ ! أنا عايزه أغسل لك وشك ! ما فيش فى بيتكم حد قال لك تغسل وشك ؟» .

ورد الصبي : «لا» .

- «يبقى لازم يتغسل الليلة» وانطلقت السيدة تسير فى الشارع وهى تجر الصبي المدعور خلفها .

كان يبدو فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . ضعيف البنية ، نحيفاً معروفاً ، ويرتدى حذاء من الكاوتش وسراويل جينز زرقاء .

وقالت المرأة : «لو كنت ابني كنت علمتك الصبح من الغلط .
خليني بس أغسل لك وشك الليلة . انت جعان . ؟» .

وقال الصبي وهي تجره خلفها : «لا . . . بس لو سمحتي
سييني» .

وقالت السيدة : «أنا كنت ضايقتك في حاجة وأنا باعدى ع
الناصية ؟» .

وقالت السيدة : «ومع ذلك احتكيت أنت بي ا إذا كنت فاكرا أن
الاشتبك ده حيثفك بسرعة تبقى غلطان . حتشوف ا وساعة ما أخلص
منك مش حتقدر تنسى مدام لويلا بيتس واشنطن جونز» .

وبدأ العرق يتصبب من جهة الصبي وبدأ يحاول التملص من
قبضتها . وتوقفت السيدة جونز وجذبتة بعنف حتى أصبح أمامها ثم
أطبقت بيدها على رقبته واستمرت في جره في الطريق . وعندما وصلت
إلى منزلها دفعت الصبي إلى الداخل فعبرا الصالة ووصلا إلى غرفة
ضخمة في مؤخرة المنزل بها مطبخ صغير . وأضاءت النور وتركت
الباب مفتوحاً . وتناهدت إلى أسمع الصبي أصوات ضحكات وأحاديث
السكان في المنزل الضخم - كل في غرفته - وقد ترك بعضهم الباب
مفتوحاً فأدرك الصبي أنهما ليسا وحدهما في المنزل . وكانت السيدة ما
تزال تطبق على رقبته في وسط الغرفة .

قالت : «أسمك ايه ؟» .

وأجاب الصبى : «روجر»

«طيب ياروجر . روح الحوض اللى هناك ده واغسل وشك» .
وأخيراً أدخلت سبيله . ونظر روجر إلى الباب ، ثم نظر إلى السيدة . ثم
إلى الباب ، ثم اتجه إلى الحوض .

- خلى الحنفية مفتوحة شوية لحد الميه ما تسخن . خد «آدى فوطة
نضيفة» .

وقال الصبى وهو ينحنى على الحوض «انتى حتودينى السجن ؟» .

وقالت : «مش بوشك الوسخ ده ا ماقدرش أوديك أى حته ! حاجة
عجيبة ! أنا راجعة البيت أحضر لقمة أكلها تقوم تخطف شنطتى ! يمكن
أنت كمان لسه ما اتعشتش - والوقت متأخر قوى - مش كده ؟» .

وقال الصبى : «مافيش حد فى بيتنا» .

وقالت : «يبقى حنتعشى سوا . أنا واثقة أنك جعان - وإلا كنت
جعان لما حاولت تخطف شنطتى» .

وقال الصبى : «كنت عايز أشتري جزمه شاموا زرقا» .

وقالت السيدة لويلا بيتس واشنطن جونز «واللى يعوز جزمه شاموا
زرقا يقوم يخطف شنطتى ؟ كان حقك تطلبها منى !» .

وقال الصبي : «أفندم ؟» .

وتطلع إليها الصبي والماء مازال يتساقط من وجهه . وتوقف الحديث برهة طويلة - برهة طويلة جداً . وبعد أن جفف وجهه وقف حائراً لا يدري ما يصنع فجفف وجهه مرة أخرى ثم استدار كأنما يتساءل في نفسه عن الخطوة التالية . ورأى الباب مفتوحاً : أنه يستطيع أن ينطلق إليه عبر الردهة ويجرى ويجرى - أنه يستطيع أن يجرى ويجرى ويهرب ! كانت السيدة تجلس على الأريكة التي تستخدم سريراً . وبعد قليل قالت : أنا كمان كنت صغيرة وياما اشتھيت حاجات ما قدرتش أشتريها

وتلا ذلك صمت طويل . وفتح الصبي فمه ثم قطب جبينه دون أن يدري وغمغمت السيدة ثم قالت «كنت فاكرنى حاقول أن أنا ما حاولتش أخطف الشنط .. مش كده ؟ غلط ! مش ده اللي كنت حاقوله» . وتوقف الحديث . وحل الصمت ثم عادت تقول «أنا كمان عملت حاجات كثيرة ماقدرش أقول لك عليها يا ... ابني - ولا حتى أقولها لربنا ولو أنه عارفها طبعاً . اسمع ! كانت تستنى شوية هنا لحد ما أحضر حاجة ناكلها - وخذ المشط ده وسرح شعرك كده عشان يبقى شكلك معقول» .

وكان في ركن آخر من الغرفة موقد صغير وثلاجة صغيرة يحجبهما ستار . ونهضت السيدة جونز واختفت خلف الستار ولكنها أقلعت عن

وقالت : «كل كمان يابنى» .

وبعد انتهاء الوجبة نهضت وقالت : «ودلوقتى - اسمع ! خد العشرة دولار دول واشترى لك جزمة شاموا زرقا . والمرة الجاية ! أياك تغلط وتنشل شنطتى ولا شنطة حد تانى ! فاهم ؟ الجزمة اللى تشتريها بفلوس حرام حتولع رجلك . يالله ! أنا لازم أستريح دلوقت . اتفضل ياريت من هنا ورايح تعقل وتبطل الشقاوة يابنى» .

وتقدمت أمامه عبر الردهة إلى الباب الأمامى وفتحته له . تصبح على خير ! وبلاش شقاوة ياولد ! - قالت له ذلك وهى تنظر إلى الطريق .

وأراد الصبى أن ينطق بكلمات أخرى - غير «شكراً يامدام» - إلى السيدة لويلا بيتس واشنطن جونز ولكنه لم يستطع عندما استدار ونظر خلفه إلى السيدة الضخمة الواقفة بالباب . وبصعوبة خرجت من فمه كلمة «شكراً» قبل أن تغلق السيدة الباب . ولم يرها الصبى بعد ذلك أبداً

مراقبة الصبى (خشية الهرب) كما تركت حافظة نقودها على الأريكة ولم تعد تلتفت إليها . ولكن الصبى قد حرص على أن يجلس فى ركن الغرفة البعيد قائلاً فى نفسه أنها يمكن إذا شاءت أن تراه فى مكانه هذا بطرف عينها . لم يكن واثقاً أن السيدة يمكن ألا تثق فيه - ولم يكن يريد ألا يكون أهلاً للثقة الآن

وسألها الصبى : «مش عايزة حاجة أجيئها لك من الدكان ؟ لبن وإلا حاجة ؟» وأجابت «ما أظنش ! إلا إذا كنت أنت عايز لبن حلو ! أصلى حاعمل كاكاو ، باللبن اللى فى العلبه دى» .
وقال الصبى «مش بطال» .

ووضعت السيدة على النار بعض الفاصوليا المطبوخة باللحم لتسخينها إذ كانت باردة فى الثلاجة ثم صنعت الكاكاو وأعدت المائدة . ولم تسأل المرأة الصبى عن مكان أقامته أو أهله أو أى أسئلة أخرى قد تسبب له حرجاً . ولكنهما تقديماً للطعام وجعلت تقص عليه طرفاً من أخبارها - فقالت أنها تعمل فى صالون تجميل بأحد الفنادق وأن العمل يستمر حتى ساعة متأخرة ، ووصفت له عملها بالتفصيل قائلة أن الصالون ترتاده السيدات من جميع الأشكال - ذوات الشعر الأشقر وذوات الشعر الأحمر والأسبانيات . ثم قطعت نصف فطيرتها التى دفعت فيها عشرة سنتات وقدمته له .

١٥ - الأرنب البرية

جراتسيا ديليدا

كانت فى وسط النهر العريض جزيرة صغيرة ، تتلألاً فى منتصفها بحيرة صغيرة ، أو بركة ذات لون فضى يضرب إلى الخضرة ، تحيط بها أشجار الحور والصفصاف ، وشجيرات من السنط البرى ، وأعشاب طويلة غضة مخملية ، مرقشة بزهور أرجوانية غريبة من عباد الشمس ، وكانت صورة الطبيعة كلها تنعكس فى هذه البركة الصغيرة ، فتبدو مثل لوحة أجمل من الواقع وأبعد ما تكون عنه .

كان جو الخيال يسود المكان كله ، فكانت سماء فصل الخريف نهاراً تحفل بالألوان التى تتغير ، وبالسحب ذات المزاج المتقلب ، وكانت السماء ليلاً يسطع فيها القمر الذى يبدو ضخماً يضرب لونه إلى الحمرة ، وتلمع فيها النجوم ، وتتماوج فى مرآة البحيرة العميقة أشباح شجر الحور .

وذات مساء وصل الصياد فألقى مرساة قاربه على الضفاف الهشة للجزيرة المهجورة ، مخلقاً آثار أقدامه وهو يسترى الخطو فوق الرمال التى

لم تطأها قدم من قبل ، وشاهد القمر الضخم الأحمر وهو يشرق بين أشجار الحور ، ثم شاهده في صورة أجمل منعكساً في مياه البركة الصغيرة . وتوقف لحظة وقد ثبت بصره على الصورة المنعكسة الوضاءة ، وشعر بسحر ذلك العالم المجهول والسماء البعيدة ذات الأسرار ، والتي كانت تبدو في قلب الأرض نفسها ، إن صح هذا التعبير . وكانت هناك أرنب برية عجوز تعيش بين أشجار السنط على الشاطئ ، فشاهدت الرجل المجهول ، وهو عدوها اللدود ، فلاذت بالفرار وجعلت تعدو بخفة مسافة طويلة دون أن تحدث صوتاً ، وقد تصلبت أذناها وانتصبتا مثل نصل سكين جهزته للدفاع عن نفسها .

ولم يتخل الرجل عن أحلامه ، وإن تخلت الأرنب عن أحلامها ، بعد أن أفلتت من الموت . وعندما وصلت إلى أعماق الغابة ، قبعت تحت شجيرة كثيفة ، وانتظرت ردحاً طويلاً ، تصيغ السمع وتشم الهواء بأنفها الصغير المرتعش ، وكانت دقائق قلبها تتوالى بسرعة لم تعهدها منذ شهور طويلة .

والواقع أن الفيضانات الأخيرة أدت إلى إختفاء جميع الأرناب البرية من الجزيرة ، إذ قُتل بعضها بالأسلحة النارية ، وقنص صيادو الأسماك بعضها في شباكهم ، وجرف النهر الغاضب البعض الآخر إلى حتفها ، فتخيلت الأرنب العجوز أنها أصبحت سيدة المكان وحدها ، وجعلت تحلم بأن تقضى ، وحدها وفي هدوء ، ما بقي لها من العمر في هذا

المكان ، كانت عجوزاً ومرهقة وتشعر بالوحشة ، بعد أن هجرها أولادها ، ولم يعد الذكور يطلبونها ، فلا بأس من الحياة فى سكون فى هذا الركن المنعزل من الجزيرة ، دون التعرض للخوف أو للخطر .

أما حين يأتى الربيع بالسيول فكانت تقيم بين بعض جذوع الأشجار التى يجرفها السيل إلى الضفاف المرتفعة فوق البركة الصغيرة ، إذ لم يكن أحد يهتم بأن يعبر منطقة الرمال التى تعترضها المستنقعات فى الجزيرة ، بل وبعد يبوس الرمال ونمو الكلى على شواطئ البركة ، لم يكن صائد الحيوان أو صياد السمك يزور الجزيرة .

السكون والعزلة . . . ولم تكن تسمع إلا البلابل على أغصان الحور السامقة وهى تغنى ألحانها لتصاحب خشخشة الأوراق التى تحيى المياه الجازية ، وقالت الأوراق التى يغمرها ضوء القمر الساجى

«الوداع أيتها المياه ! الحركة أفضل من السكون !»

وأجابت المياه وهى تهرع نحو البحر :

«الوداع ! السكون أفضل من الجرى إلى الأبد !» .

وكانت الأرنب العجوز تصغى لذلك الحوار ، الذى أفعم قلبها بالغبطة ، إذ شعرت أنها أقوى من الأشجار وأسرع عدواً من الماء ، وأحست بالرضى لقدرتها على السكون وعلى الجرى حسبما تشاء . . .

ومرت الشهور وصمتت البلابل ، وبدأت أشجار الحور تسقط أوراقها ، وشعرت الأرنب العجوز أنها لم تعهد مثل هذا الهدوء وهذا الأمن من قبل فى حياتها ، وما هو ذا الشبح المجهول الفتاك يعود فجأة إليها . ترى لماذا عاد ؟

وقبعت فى مكمنها تحت الشجيرات ، وقد ثبتت حركة عينيها الكبيرتين تحت جفنيهما الحمرأوين ، وتطلعت فرأت على البعد منطقة رملية يسطع عليها ضوء القمر ، يحدها دغل كثيف ، ومساحة من الخلاء الذى تمتعت فيه هى أيضاً ، فى أيام صباها الهائنة ، بالتواشب وتعقب ظلها على الأرض أو انتظار حبيبها فى الليالى التى يسطع فيها ضوء القمر .

شاهدت ظلاً يتحرك على الرمال ، يعقبه ظل آخر ، وظنت الأرنب العجوز أنها تحلم ، ولكن الظلين عادا فتوقفا ثم استأنفا لعبتهما العجيبة . لم يعد لديها أى شك : كانا أرنبين بريين . وهنا فهمت العجوز سبب عودة عدوها المجهول ، ذلك الصياد فى تلك الليلة إلى الجزيرة .

وهنا فار غضب عارم ، بقدر ما يمكن لغضب الأرنب أن يكون عارماً ، فى قلبها من جديد ، ولكنها لم تقنع نفسها أنها أخطأت بالبقاء وحيدة فى الجزيرة ، بل تصورت أن الأرنبين قد وضعأ أيديهما دون وجه حق على جزيرتها .

كان الهرم والعزلة قد جعلها شرسة وأنانية ، حتى إن غضبها من ظهور الأرناب كان أكبر من غضبها لرؤية عدوها المجهول ، وعندما أقدمت على الخروج من مخبئها وخطت نحو الساحة الرملية ، وأدركت أن الأرنبين كانا عاشقين ، ازداد عنف غضبها وعمقه .

ولكن ذلك لم يمنع الأرنبين من مواصلة اللعب والتواثب والعدو معاً ، وكانت الأنثى سمينة ، وتكاد أن تكون شفافة الأذنين ، فلونهما وردى من الداخل وداكن من الخارج ، وكانت تهوى اللهو واللعب ، إذ جعلت تجرى حول الذكر وتتظاهر بأنها لا تراه ، ثم ترقد على الرمال ، فإذا اقترب حبيبها منها هبت وجرت مبتعدة عنه . أما الذكر فكان نحيلاً أضناه العشق والسرور ، فلم يكن ينظر إلا إليها ، ويتعقبها ويلقى بنفسه عليها دون هوادة . كانا سعيدين ، مرحين ، لا يحملان همًا من هموم الدنيا ، مثل جميع العشاق السعداء .

ولم تكل عين الأرنب العجوز من النظر إليهما ، وحتى حين كان الزوجان الجميلان يختفيان من الساحة بسبب الإرهاق من فرط التواثب والملاعبة ، كانت العجوز لا تبرح مكمنها ، وتظل عينها على الساحة ، وأذناها منتصبتان ترتعشان مثل ورقتين من أوراق الشجر الجافة فى مهب الريح .

ومرت الليالى والأيام ، وصار القمر فى المحاق ، وعاد الظلام الدامس فى كل مساء ، ولكن الأرنب العجوز لم تعد إلى ضفاف البركة

خوفًا من الصياد ، بل ظلت مختبئه في أحلك أعماق الغابة ، ولم تكن تخرج من مكنها إلا لمأماً ، فتقترب من الساحة أثناء الليل لمشاهدة العاشقين في لهوهما ومراحهما .

و ذات يوم سمعت طلقة نارية ، ثم طلقة أخرى ، وبعدها طلقات ، بعيدة وغامضة ، كأنها الأصداء تتنادى من بعيد .

كانت الليلة دافئةً ، بليلة النسيم ، والهلال قد مال للغروب خلف أشجار الحور العارية من أوراقها ، كأنما جعلها الله ليلة للعشاق المخلصين ، ولكن العاشقين لم يعودا للظهور .

لا بد أن العدو المجهول قد ظفر بهما ، واستبدت فرحة النصر العارمة الطاغية بالأرنب العجوز حتى بدأت تتوالب على الرمال ، حيث كانت آثار أقدام العاشقين المسكينين ما تزال بادية .

ولكنها سمعت وقع أقدام بشرية فلاذت بالفرار ؛ كانت تلهت ولا تستطيع رؤية شيء وهي تنطلق سارية خلال الغابة حتى كادت أن تصل إلى الضفة الأخرى للنهر ، وهناك قبعت في مخبئها حتى انبلج الفجر في تلك البقعة التي لم ترتدها من قبل .

وأفاقت عندما بزغ الفجر على الغابة التي كانت غلالات الضباب ما تزال تلفها ، وتتساقط من الشجيرات قطرات ضخمة من ندى الصباح البارد ، فخرجت الأرنب تستطلع الأحوال وهبطت إلى حفرة صغيرة ،

حيث وقعت عيناها على مشهد آثار مشاعرها ومس أوتار قلبها ، على الرغم من قسوة طبعها ، إذ وجدت جُحراً فيه أرنبان صغيران لم يتجاوزا العام الأول من العمر ، صغيران مكتئبان ، آذانهما شفافة ، وأعينهما كبيرة ثابتة براقية ، وحدثت أنهما من أطفال الأرنبين اللذين قتلتهما الصياد .

كان أحدهما يلحق رأس أخيه وأذنيه ، وعندما لمح الأرنب العجوز بدأ يتطلع إليها ، ومد أنفه يتشمم الهواء ثم عاد أدراجه ، خائفاً مما تجاسر على فعله . ومضت الأرنب العجوز إلى حال سبيلها ، ولكنها عادت فيما بعد وجعلت تشاهد الصغيرين اليتيمين وهما يلعبان ويلعقان بعضهما البعض :

كان النهار بارداً حزيناً ، وبدأت الأمطار تهطل في المساء ، فعادت الأرنب العجوز إلى مكمنها القديم فوق جذوع الأشجاع ، على الضفة المرتفعة للبركة . واستمر هطول الأمطار ولكن ذلك لم يزد من حزن الأرنب العجوز ، إذ إن الأمطار تعنى في الواقع نهاية الجو الصحو ، ومن ثم ضمان أمنها وعزلتها ، وسرعان ما تبطل الرمال وتفقد صلابتها فلا يجرؤ صياد على عبور الغابات الرطبة العارية .

وما عساه يكون من أمر الأرنبين المسكينين ؟ ما عساه يحدث لهما في ذلك الجحر الصغير ؟ هل تذكرت الأرنب العجوز عاشقة العزلة أطفالها الصغار ، ودفء جحرها ، ومسرات الأمومة ؟ من الصعب أن

نقطع فى هذا برأى ، ولكنها على آفة حال تركت منخبأها فى الفجر
وذهبتم لمشاهدة الصغفرين من جفد . كان المسكفنان نائمن ، أحدهما
فوق الآخر ، ولا بد أنهما كانا ففوقعان عودة أمهما ، حتى فى نومهما ،
فحفرنا اقتربت الأرنب العجوز منهما ، مد كل منهما أنفه وهز أذنه
الصغفرفن .

وتطلعت الأرنب العجوز إلفهما بعفرنهما الكفرفن المبلفن ، ومدت
أنفها هى الأخرى كأنما لشم رائحة الحجر .

وعادت الأمطار إلى الهطول ، وأحاطت بالجزفرة واكنفنها غلالة
رمادية من الضباب والمطر ثمانى لفال وثمانفة أيام ، حتى بدا أن البركة
قد ملئت بحبر أسود لامع ، وظلت المفاه ترتفع وتعلو حتى كادت أن
تصل إلى معصم الأرنب العجوز . وحاولت أن تذهب لمشاهدة
الصغفرين من جفد ، ولكن الرمال كانت قد ساخت بالقرب من
معصمها فى عدة أماكن ، وتغلغلت المفاه ففها جمفعا ، فأصبح من
المحال الوصول إلى الوادى الصغفر . وعاد المطر ففهل وففهل ،
وعلت ضجة جهمة من بعفد كأنها أصوات جيش الغزاة العافن الزاحفن
على البر مدمرفن كل ما فى طرففهم .

كان ذلك الصوت مألوقا للأرنب العجوز ، فهو صوت حشرفة
النهر الطاغى فى طوفانه ، ولم تجرؤ على مغادرة مكمنها ، وإن كان

الجوع يقرصها ، إذا لم تتناول من الطعام سوى بعض وريقات جافة .
واضطرت فى أحد الأيام إلى الصيام بعد أن ارتفعت المياه فوصلت إلى
جذوع الأشجار ، وكانت أى حركة تكتنفها الأخطار .

وظلت المياه تعلو وتعلو ، وكانت رمادية اللون ، غامضة صامتة ،
فبدا أن الأرض والهواء والسماء قد استحالت جميعاً إلى كتلة واحدة من
المياه العكرة الباردة .

ولكن الأمطار توقفت فى مساء اليوم الثامن ، وانفجرت السحب
فجأة عن صفحة السماء ، فظهر أديمها الأخضر الشاحب هنا وهناك من
خلال الضباب الرمادى ، ومن فرجة بين السحب ، وفى أعماق منجم
قريب ، سطع ضوء القمر المفضض المذهب .

وهبطت المياه ، فبدا كأنها تتراجع مرهقة من جهود الغزو ، حاملة
معها غنائم من أوراق الشجر وأغصانه والرمال والكائنات الميتة .

وأشرقت الشمس فى اليوم التالى على المكان الذى أصابه الدمار ،
فتمكنت الأرنب المسكينة التى تعانى من الجوع الشديد والبلل ، من ترك
مخبئها وجعلت تُدْفِئ نفسها وتتطلع إلى ما حولها ، فوجدت أن البركة
قد اختفت ، وأن جدولاً يختلط الماء فيه بالطين يسير الهوينى تحت
الضفة العالية ، التى زاد ارتفاعها فغدت مثل السد ، ولا تزال المياه
تحمل غنائمها وضحاياها .

وفجأة شاهدت الأرنب على سطح الماء ، بين الأغصان العارية والأوراق الجافة والآلاف المؤلفة من الفقاقيع الطافية كأنها جبات عقد انشر، أرنبين صغيرين ، ميتين ، طويلين ونحيلين ، أعينهما مفتوحة ، وأذانهما مشرعة ، يجريان بسرعة على صفحة الماء ، بالقرب من بعضهما البعض ، مثل أخوين أخلصا الحب فلم يفترقا حتى بعد الموت .

لقد أصبحت الأرنب العجوز وحيدة حقاً في الجزيرة .

١٦ - الضبع

يول باولز

كان طائرٌ لَقَلَّقُ ماراً بإقليم صحراوي في طريقه إلى الشمال . كان ظمآن وقد شرع يبحث عن ماء . وعندما وصل إلى جبال كانج إجار Khany el Ghar أبعد بركة في قاع مَسِيل (وادي) . فطار بين الصخور وحطَّ على حافة الماء . ثم دخل فيه وشرب .

وفي تلك اللحظة أقبل ضبع يظلع وإذا رأى اللقلق واقفاً في الماء قال : «هل كانت رحلتك طويلة ؟» . لم يكن اللقلق قد رأى ضبعاً من قبل ، ففكر قائلاً : «وهكذا فهذا هو الضبع» . وقف ينظر إلى الضبع لأنه قيل له إن الضبع إذا تمكن من أن يريق قليلاً من بوله على أي كائن ، فإنه سوف يتعين على ذلك الكائن أن يسير وراء الضبع إلى أي مكان يريد له هذا الأخير .

وقال اللقلق : «سرعان ما سيحل فصل الصيف . إنني في طريقى إلى الشمال وفي الوقت ذاته ، سار موغلاً في البركة حتى لا يكون قريباً من الضبع إلى ذلك الحد . كان الماء هنا أعمق ، وقد كاد يفقد توازنه

وتعين عليه أن يرفرف بجناحيه كيلا يقع . وسار الضبع إلى الجانب الآخر من البركة ونظر إليه من هناك .

ومالبت الضبع أن قال : «إنى أعرف ماذا يدور بخاطرك . إنك تصدق القصة التي تسمعها عنى . أتظننى أملك تلك القدرة ؟ لعل الضباع قد كانت كذلك منذ زمن بعيد . لكنها الآن لا تختلف عن غيرها من المخلوقات أستطيع أن أبللك ببولى من هنا إذا أردت . ولكن ما الداعي ؟ إذا أردت ألا تصادقنى فاذهب إلى منتصف البركة وابق هناك .

نظر اللقلق حوله فى أنحاء البركة ورأى أنه ليس فيها بقعة يستطيع الوقوف بها بحيث يكون بعيداً عن منال الضبع .

وقال اللقلق : «لقد انتهيت من الشراب» . ثم بسط جناحيه ورفرف خارجاً من البركة . عند حافتها ركض مسرعاً إلى الأمام وعلا فى الهواء . دار فوق البركة ملقياً ببصره إلى الضبع .

وقال : «وهكذا فأنت الكائن الذى يسمونه الغول . إن العالم ملئ بالأشياء الغريبة» .

فرفع الضبع إليه بصره . كانت عيناه ضيقتين معوجتين وقال : «لقد جلبنا الله جميعاً إلى هنا ، أنت تعرف ذلك أنت الذى يعرف عن الله» .

فطار اللقلق على مستوى أدنى قليلاً ، وقال «هذا حق . ولكن يدهشنى أن أسمعك تقول ذلك . إن سمعتك بالغة السوء ، كما قلت أنت نفسك منذ هنيهة . فالسحر مناف لمشيئة الله» .

وهنا أمال الضبيع رأسه وصاح : «وهكذا فأنت مازلت تصدق هذه الأكاذيب عن جنسى ؟» .

قال اللقلق : «إنى لم أر مثانتك من الدخل . ولكن لماذا يقول كل امرئ أنك تستطيع أن تصنع بها سحراً ؟» .

قال الضبيع : «إنى لإتساءل لماذا منح الله رأساً ؟ إنك لم تتعلم كيف تستخدمه» ولكنه كان يتحدث بصوت خفيض إلى الحد الذى لا يستطيع اللقلق معه أن يسمعه .

قال اللقلق : «إن كلماتك لا تنسلى» وترك نفسه يهبط فى الهواء أدنى قليلاً .

ومرة أخرى رفع الضبيع إليه بصره قائلاً : «لقد كنت أقول : لا تقترب منى أكثر مما ينبغى ، فقد أرفع ساقي وأعطيك بسحرى ! وضحك

كان اللقلق قريباً منه بما يكفى لأن يجعله يرى أن أسنانه سمراء .

وشرع اللقلق يقول : «لابد أن ثمة سبباً ما ، رغم ذلك» . ثم بحث عن صخرة تعلو الضبيع ، وحط عليها . وجلس الضبيع رافعاً بصره إليه وهو يحدق . ومضى اللقلق يقول : «لماذا يكرهك الجميع ؟ لماذا يدعونك غولاً ؟ ماذا فعلت ؟» .

فأغمض الضبع عينيه نصف إغماضة وقال اللقلق : «إنك سعيد الحظ جداً . فالبشر لا يحاولون قتلك ، لأنهم يظنونك مقدساً . إنهم يدعونك قديساً وحكيماً . ومع ذلك فأنت لا تبدو قديساً ولا حكيماً» .
قال اللقلق مسرعاً : «ماذا تعنى ؟» .

لو أنك كنت تفهم حقاً ، لعرفت أن السحر حبة تراب فى مهب الريح ، وأن لله سلطاناً على كل شئ ، ولما ساورك خوف» .
وقف اللقلق زمناً طويلاً يفكر . رفع ساقاً وثناها أمامه . واصطبغ المسيل باللون الأحمر إذ هبطت الشمس من مستقرها . وجلس الضبع بهدوء رافعاً بصره إلى اللقلق ، منتظراً منه أن يتكلم .

وأخيراً أنزل اللقلق ساقه وفتح منقاره وقال : «أتعنى أنه إذا لم يكن هناك سحر ، فإن الشخص الذى يرتكب الخطيئة هو الشخص الذى يعتقد أن ثمة سحراً ؟» .

وهنا ضحك الضبع وقال : «لم أقل شيئاً عن الخطيئة . وإنما أنت الذى قلت ، وأنت الحكيم . ليست مهمتى فى العالم هى أن أخبر أحداً ما الصواب وما الخطأ . إن العيش من الليل إلى الليل يكفينى . إن كل إنسان يتمنى أن يرانى ميتاً .

ومرة أخرى رفع اللقلق ساقه ووقف يفكر . ارتفع آخر شعاع من ضوء النهار إلى السماء واختفى . وذابت الصخور عند جوانب المسيل فى

الظلمة . وأخيراً قال اللقلق : «لقد وهبتني شيئاً أفكر فيه ، وهذا أمر طيب ولكن الليل قد جن الآن ، لا بد لي من أن أمضي في طريقي . ورفع جناحيه وشرع يطير - دون أن يلوى على شئ من الجلمود الذي كان واقفاً عليه . وأخذ الضبع يصغى إليه بسمعه . سمع جناحي اللقلق يضربان الهواء ببطء ، ثم سمع صوت بدن اللقلق وهو يضرب الصخرة على الجانب الآخر من المسيل ، فتسلق الصخور ووجد اللقلق ، وقال : «إن جناح قد انكسر ، كان خيراً لك أن ترحل قبل أن يختفى ضوء النهار» .

فقال اللقلق : «أجل» . وكان تعساً يشعر بالخوف .

وقال له الضبع : «تعال معي إلى بيتي . هل تستطيع السير؟»

قال اللقلق : «أجل» وشقا طريقهما معاً في الوادي . وسرعان ما انتهيا إلى كهف في جانب الجبل . فدخله الضبع أولاً ونادى عليه منه . «الآن تستطيع أن تدخل رأسك . إن الكهف عال هنا» .

لم يكن ثمة سوى ظلمة بالداخل ووقف اللقلق في مكانه ، ثم قال : «أين أنت؟» .

وأجابه الضبع : «إني هنا» وضحك .

وسأله اللقلق : «لماذا تضحك؟» .

فقال الضبع : «كنت أفكر أن العالم مكان غريب . لقد دخل القديس كهفي لأنه يؤمن بالسحر» .

قال اللقلق : «لست أفهمك» .

«إنك مضطرب ، ولكنك على الأقل تستطيع الآن أن تصدق أنى لا أملك سحراً إنى لا أختلف عن أحد فى هذا العالم» .

لم يجبه اللقلق فوراً وشم رائحة الضبع الكريهة شديدة القرب منه ثم قال متنهداً : «أنت مصيب بطبيعة الحال فليس ثمة قوة تجاوز قوة الله» .

قال الضبع وهو يتنفس فى وجهه : «إنى سعيد . أخيراً أصبحت تفهم وسرعان ما أمسك بعنق اللقلق ووجأه . رفرف اللقلق وسقط على جنبه .

قال الضبع هامساً : «لقد منحنى الله ما هو خير من السحر منحنى مخاً» .

رقد اللقلق ساكناً : حاول أن يقول مرة أخرى : «ليس ثمة قوة تجاوز قوة الله» ولكن منقاره لم يعد أن انفتح بالغ الاتساع فى الظلام .

تحول عنه الضبع مبستعداً ، وقال من فوق كتفه : «ستموت فى مدة دقيقة ، وبعد عشرة أيام سأعود إليك وعند ذلك ستكون جاهزاً لرجبتى» .

وبعد عشرة أيام ذهب الضبع إلى الكهف ووجد اللقلق حيث تركه . لم يكن النمل قد زحف إليه فقال : «هذا أمر طيب» . التهم منه مما أراد ، ثم خرج إلى صخرة كبيرة مسطحة فوق مدخل الكهف . وهناك فى ضوء القمر وقف بعض الوقت يتقيأ .

أكل قليلاً من قيئه وتمرغ زمناً طويلاً في يقينه ، وهو يحكه بفراثة عميقاً . ثم شكر الله على أنه وهبه عينين تستطيعان أن تريا الوادى فى ضوء القمر ، وأنفاً يستطيع أن يتشمم الجيفة على متن الريح . تدحرج فى القيئ مرة أخرى ولعق الصخرة من تحته . ولبعض الوقت رقد هناك يلهث وسرعان ما نهض ومضى يظلع فى طريقه .

١٧ - الأشياء

ثالثتاين كاتاييف

ربط الحب المشبوب بين قلبى جورج وشوركا ، فعقدا قرانهما فى يوم من أيام شهر مايو ، صفا فيه الجو واعتدل ، وما كاد المأذون ينتهى من كلمات التهنة المقتضبة التى أصغيا إليها بصبر نافد حتى اندفع العروسان الشابان خارجين إلى الطريق العام .

كان جورج طويلًا نحيلًا ، ذا صدر مهزول وطبع هادى ، فنظر بطرف عينه إلى شوركا وقال «إلى أين نمضى الآن؟» .

وكانت شوركا طويلة أيضًا ، جميلة أنيقة ، مشاعرها ملتبهة متقدمة ، فزادت من التصاقها به حتى دغدغ أنفه غُصْنُ الليلاك الذى يزين شعرها ، وهمست بانفعال اتسعت له فتحتا أنفها قائلة «إلى السوق طبعًا لشراء الأشياء ! وهل هناك سوى السوق؟» .

وقال زوجها : «تقصدين لشراء الأثاث؟» وقد ارتسمت على شفتيه بسمة غباء ، ويده تصلح من وضع الكاسكيتة على رأسه أثناء السير .

كانت الريح تهب فتثير الغبار فى السوق ، والإزازات النحيلة الملونة المعلقة فوق الدكاكين المنصوبة فى ظاهر السوق تتماوج مع هبات الهواء

الجاف ، والجراموفونات القديمة ينافس بعضها بعضاً فى الصرير الذى
يعلو وسط الموسيقى ، والشمس تسطع وتنعكس أشعتها على المرايا
المعلقة التى تلعب بها أيدي الريح ، وشتى البضائع وألوان السلع الجذابة
، بل وبعض المعروضات ذات الجمال الأخاذ ، تحيط بالعروسين
الشابيين .

واحمر خدا شوركا ، وتصيب العرق من جبينها ، وتهدل شعرها
واختلط حتى وقع غصن الليلاك ، واتسعت حدقتا عينيها واستدارتا ،
وهى تضع يدها الملتهبة على كوع چورچ ، وتدفعه دفعاً فى السوق وهى
تعصد على شفتيها الغليظتين المتشققتين .

وقالت بأنفاس محتبسة «اللحاف أولاً . . لحاف من ريش الأوز
أولاً!» .

كانت صرخات الباعة تصم الآذان ، فأسرعا بشراء لحافين مربعين
، وكان كل لحاف ثقيلاً غليظاً يتكون من قطع شتى من الأنسجة المتباينة
، أعرض مما ينبغى وأقصر مما ينبغى ، لون أحدهما أحمر طوبى ،
والآخر بنفسجى داكن .

وغمغمت شوركا قائلة «والآن إلى الأحذية ذات الرقبة» ، وقد اقترب
وجهها من وجه چورچ حتى غمرته أنفاسها الحارة ، «ولابد أن تكون
البطانة حمراء ، وعليها حروف مميزة حتى لا يسرقها أحد» .

واشتريا الأحذية ، زوج من الأحذية الحریمی وزوج رجالی .
وكانت البطانة والحروف قرمزية ، ولمعت عينا شوركا وبرقتا وهي تقول
«الفُوطُ ! وعليها زخارف من صور الديوك . .» وكانت أنفاسها تتلاحق
كالأنين وهي تضع رأسها الملتهب على كتف زوجها ، وبعد شراء
المناشف ذات الديوك المصورة ، اشتريا أربع بطانيات ، وساعة بمنبه ،
وقطعة من القماش المخملى ، ومرآة ، وسجادة صغيرة مزخرفة بصورة
النمر ، وكريسين جميلين بهما مسامير نحاسية ، وعدة كرات من خيوط
الصوف .

وكانا يريدان أيضاً شراء سرير كبير له مقابض من معدن النيكل
وبعض الأشياء الأخرى ، ولكن المال كان قد نفذ ، فعادا إلى المنزل
يحملان ما اقتنيا من أشياء ، فكان جورج يحمل الكريسين ، وعلى
صدره اللحافان المطويان يمسكهما بذقنه ، وكان العرق قد بلل شعره
وأصقه بجهته البيضاء ، وقطرته تنساب على خديه الناحلين اللذين
تدفقت الدماء فيهما ، وارتسمت الظلال الزرقاء تحت عينيه ، وفمه نصف
مفتوح ، تبدو فيه الأسنان غير السليمة ، ويوشك أن يسيل منه الروال .

وعندما عادا إلى مسكنهما البارد ، خلع الكاسكيت وألقاها معبرا عن
إرتياحه منها ثم سعل ، ووضعت شوركا الأشياء على سريره الصغير
وألقت نظرة على الغرفة ، وبنزوة من نزوات الحياء التي تتاب الفتيات
لكمته لكمة حب بقبضتها الضخمة الحمراء في صدره - بين الضلوع -
قائلة :

«اسمع ! لا أريدك أن تسعل !» وكانت تتظاهر بنبرة الصرامة والقسوة «وإلا أصبت بالسل وهلكت ، وأنت الآن مستول عني . . وأنا أعنى هذا» ومن ثم وضعت خدها الأحمر على كتفه النحيل .

وجاء ضيوف حفل الزفاف في المساء ، وبدأت الوليمة ، فتأمل الضيوف الأشياء الجديدة بإعجاب وإكبار ، وأثنوا عليها ، وشربوا ما اقتضته مراسم الحفل من الفودكا ، زجاجتين كاملتين ، والتهموا الفطائر، ورقصوا على أنغام آلة الهارمونيوم ، ثم ما لبثوا أن رحلوا ، بعد أن سار كل شيء وفقاً لما ينبغي له أن يسير ، بل إن الجيران أنفسهم أبدوا دهشتهم لما اتسم به حفل الزفاف من هدوء واحتشام ، دون إفراط أو مغالاة في شيء .

وبعد رحيل الضيوف عادت شوركا وچورچ من جديد إلى تأمل المشتريات وإبداء الإعجاب بها ، فقامت شوركا بتغطية الكرسيين بأوراق الصحف ، بعناية ، ووضعت الأشياء الأخرى في صندوق كبير أغلقته بإحكام ، بما في ذلك اللحافان ، بعد أن وضعت الحذائين بالحروف المنقوشة فوق كل شيء .

وفي منتصف الليل استيقظت شوركا مهتاجة قلقة وأيقظت زوجها صائحة «هل تسمعي يا چورچ ؟ اسمع يا حبيبي چورچ» ثم همست بحرارة قائلة «أفق يا چورچ ! لقد أخطأنا عندما لم نشتر اللحاف الأصفر! اللحاف الأصفر الفاقع أظرف بكثير ، وأنا واثقة أننا كان يجب أن

نشتره ا وبطانة الأحدية غير مناسبة هى الأخرى . لم نكن نتصور . .
أقصد كان ينبغى أن نختار ذوات البطانة الرمادية . إنها أجمل كثيراً من
البطانة الحمراء . والسريـر ذو المقابض . . إننا لم نفكر فيه التفكير
اللازم» .

وفى الصباح ، وبعد أن أسرعـت شوركا بتجهيز جورج للذهاب إلى
عمله ، أهرعت عائدة إلى المطبخ لمناقشة انطباعاتها عن الزفاف مع
الجيران ، فبدأت بالحديث - من باب مراعاة الأصول - عن ضعف صحة
زوجها لمدة خمس دقائق ، ثم دعت النسوة إلى دخول غرفتها حيث
فتحت الصندوق وبدأت فى عرض محتوياته . وأخرجت اللحافين ،
وتنهدت تنهيدة سمعتها الحاضرات وهى تقول «لقد أخطأنا بعدم شراء
اللحاف ذى اللون الأصفر الفاقع . . لم يجـل بخاطرنا أن نشتره . . آه !
لم نلق بالأى إلى -» ودارت عيناها وغامت .

وأثنى الجيران على الأشياء ، وقالت زوجة الأستاذ ، وهى عجوز
طيبة القلب ، بعد قليل : «لا بأس بذلك كله ، ولكن يبدو أن زوجك
مصاب بسعال خطير . إننا نسمع كل شىء من خلال هذا الحائط
الرقيق . لابد أن تولى هذا الموضوع اهتمامك وإلا ، كما تعرفين . . .» .

وقالت شوركا بغلظة مقصودة «لا أهمية لذلك ، فلن يموت بسببه !
وحتى لو مات فلن يضره ذلك وسوف أجد رجلاً آخر» .

ولكن قلبها ارتعد فجأة ، وقالت لنفسها «سأقوم بإعداد الهامبورجر له، إذ لا بد له أن يأكل ويشبع !» .

ولاقى الزوجان الأمرين فى العيش حتى حان موعد قبض المرتب التالى ، ولكنه ما إن جاء المال حتى اتجها فوراً إلى السوق ، واشترى اللحاف ذا اللون الأصفر الفاقع ، وبعض اللوازم التى لا غنى عنها للمنزل، إلى جانب بعض الأشياء البالغة الجمال : ساعة دقاقة ، وقطعة من فراء القندس ، ومنضدة صغيرة معدة لوضع إناء الزهور بأحدث أساليب الموضة ، وأحذية ذوات رقبة وبطانة رمادية ، وستة ياردات من الحرير الناعم ، وتمثال رائع عجيب الشأن لكلب مزين ببقع مختلفة ألوانها ، ومئزر من الصوف ، وصندوق صغير يضرب لونه إلى الخضرة، ويصدر أصواتاً موسيقية عند فتحه .

وعندما عادا إلى المنزل وضعت شوركا هذه الأشياء بنظام محكم فى الصندوق الكبير ، وجعلت القفل يعزف سلماً موسيقياً .

واستيقظت فى منتصف الليل ، وأسندت خدها الملتهب إلى جبهة زوجها الباردة التى يتفصد منها العرق وقالت له بهدوء «جورج ! هل أنت نائم ؟ لا تنم ! اسمعنى يا جورج يا حيبى ! كان هناك لحاف أزرق ! أنا حزينة لعدم شرائه ! خسارة ! إنه لحاف لطيف لطيف .. جداً . يبرق لونه بعض الشيء .. لم نتصور ..» .

وذات يوم فى منتصف الصيف دخلت شوركا إلى المطبخ فى مرح
وسرور وهى تقول «حصل زوجى على عطلة ! حصل كل من زملائه على
أسبوعين ولكنه حصل على شهر ونصف .. صدقونى ! وهى عطلة
بمرتب كامل ! سوف نذهب فوراً لشراء السرير ذى القوائم الحديدية
والمقابض .. هذا مؤكد !» .

وقالت العجوز ، زوجة الأستاذ ، بنبرات حاسمة «نصيحتى هى أن
تتخذى ترتيبات إدخاله إلى مصحة جيدة» وهى تضع المصفى المليئة
بالبطاطس المسلوقة الساخنة تحت صنبور الماء ، وأضافت قائلة «وإلا -
كما تعرفين - قد يفوت موعد العلاج» .

وردت شوركا بلهجة غاضبة «لن يحدث له شىء !» وقد وضعت
ذراعيها فى وسطها بهيئة التحدى ، وأردفت تقول «سأرعاها هنا خيراً من
أى مصحة ، سأقلى له شرائح الهامبورجر وأدعه يأكل ما يشاء حتى
يشبع !» .

وعاد الزوجان فى المساء من السوق بعربة يد صغيرة حافلة
بالأشياء ، وكانت شوركا تسير خلف العربة وتتطلع ببصرها إليها كأنما
سحرها انعكاس وجهها الذى تصاعد الدم إليه فى النيكل الذى يكسو
حديد السرير . أما جورج فكان يزفر زفرات ثقيلة ولا يكاد يقوى على
دفع العربة ، وكان يحمل على صدره اللحاف المطوى ذا اللون الأزرق
السماوى ، ويمسكه بذقنه المدببة ، وكان لا يتوقف عن السعال .
وانحدرت قطرة داكنة من قطرات العرق على فوده الغائر .

واستيقظت شوركا أثناء الليل إذ أقض التفكير العميق مضجعها ،
وما نهش ذهنها من أفكار ، فشرعت تهمس بسرعة «حبيبي جورج !
ما زال هناك لحاف رمادى ! هل تسمغنى ؟ يحزننى أننا لم نحصل عليه ..
خسارة ! ما أظفه وأجمله ! رمادى رمادى ، ولكن البطانة ليست رمادية
بل وردية اللون . . ما أرقه وأظرفه من لحاف !» .

أما آخر مرة شوهد فيها جورج فكانت فى صباح يوم من أواخر أيام
الخريف ، وكان يسير بصعوبة فى الشارع الجانبى الصغير ، وقد غطى
أنفه الطويل الشفاف الذى يكاد يشبه الشمع بياقة سترته الجلدية التى أكل
عليها الدهر وشرب ، وكانت ركبتاه الحادتان بارزتين ، وسرواله
الفضفاض يخفق حول رجليه الهزيلتين ، وكانت الكاسكيتة الصغيرة قد
تدحرجت إلى مؤخرة رأسه ، وتدللى شعره الطويل على جبهته ، وبدا
مبللاً وفاحماً .

كان يتعثر فى سيره ، ولكنه كان يحرص على تجنب الخوض فى
برك الماء حتى لا يبتل حذاؤه النحيل ، وعلى شفثيه الشاجبتين تتراقص
بسمة واهنة ، بسمة سعادة تكاد تكون بسمة قناعة .

وعندما وصل إلى المنزل أرغم على الرقاد فى السرير ، وجاء طبيب
المنطقة وأسرعت شوركا إلى مكتب التأمينات الاجتماعية للحصول على
بدل العلاج ، واضطرت إلى الذهاب إلى السوق وحدها هذه المرة ،
وعادت تحمل اللحف الرمادى ، ثم وضعت فى الصندوق .

وسرعان ما ساءت حالة جورج ، وبدأت بشائر الثلج ذلك الشتاء ،
وكان ينصهر عند الوصول إلى الأرض ، واكتسى الجو بلون أزرق
ضبابي ، وتهامس الأستاذ مع زوجته ، وسرعان ما ظهر طبيب آخر ، قام
بفحص المريض ثم دخل إلى المطبخ ليغسل يديه بصابون مطهر .
وكانت شوركا تقف وقد بللت الدموع وجهها وسط سحابة من الدخان ،
إذ كانت تفتل شرائح ضخمة من الهامبرجر مع الثوم على الموقد .

وصاحت زوجة الأستاذ في دهشة قائلة «هل أنت مخبولة ؟ ماذا
تفعلين ؟ سوف تقتلينه ! هل تظنين أنه يستطيع أن يأكل شرائح
الهامبورجر بالثوم ؟» .

وقال الطبيب بلهجة جافة «نعم ا» ، وأخذ ينفض الماء عن أصابعه
في الحوض ثم أضاف قائلاً «له أن يأكل ما يشاء الآن» .

وصرخت شوركا قائلاً : «وماذا يضيره إن أكل هذه الشرائح ؟»
وأخذت تمسح وجهها بكمها وهي تقول «لن يحدث له شيء» .

وفي المساء جاء مفتش الضحة مرتدياً الأوفرول القطنى الأبيض ،
وجعل يرش غرف المنزل المشتركة بالمواد الكيماوية المطهرة ، التي
فاحت رائحتها في الممرات والدهاليز واستيقظت شوركا أثناء الليل وهي
تشعر بحزن لا تفسير له يمزق نياط قلبها . وهمست بصبر نافد «جورج
! اسمعنى يا جورج الحبيب .. استيقظ ! أمرك يا جورج» .

ولكن جورج لم يرد . كان بارداً . وعندها تركت السرير وسارت
مثاقلة حافية القدمين فى الممر ، وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحاً
ولكن أحداً من السكان لم يستطع النوم ، فأهرعت إلى باب شقة الأستاذ
وإنهارت وهى تصرخ فى فزع «لقد راح ! راح ! انتهى ! ياربى ! لقد
مات ! جورج ! آه يا حبيبي جورج !» .

وشرعت تولول ، فأطل الجيران من أبوابهم ، وكانت انعكاسات
نجوم الشتاء الزرقاء تتلألأ على الصقيع الذى يكسو الأرض بغلالة صلبة
خلف النوافذ المظلمة .

وفى الصباح جاءت القطة الأليفة فوقفت عند الباب المفتوح لغرفة
شوركا ، ونظرت إلى داخل الغرفة ، ثم انتصب شعر فرائها فجأة ،
وكانت شوركا تجلس فى وسط الغرفة والدموع تغمر وجهها ، وكانت
تحدث الجيران برنة غضب كأنما لحقت بها إهانة ما :

«وكنت أقول له املاً معدتك بشرائح الهامبورجر ! لكنه رفضها !
انظروا كم بقى منها ! ماذا سأفعل بها ؟ ولمن تخليت عنى يا جورج
الشقى !؟ لقد تركنى ولم يأخذنى معه ، ولم يرد أن يأكل شرائحى ! آه
يا جورج ! يا حبيبي !» .

وبعد ثلاثة أيام جاءت عربة الموتى التى يجرها حصان رمادى
فوقفت خارج المنزل ، وفتحت البوابة الرئيسية على مصراعها ، فدخل

الهواء الزمهرير في شتى أرجاء المبنى ، وشاعت رائحة زيت الصنوبر ،
وأخرج جورج إلى مثواه الأخير .

وفي مأدبة المأتم كانت شوركا مرحة إلى حد غير عادي ، وقبل أن
تقرب أى طعام شربت نصف كوب من براندى الذرة ، فاحمر لون
بشرتها ، وبدأت عيناها تذرف الدموع ، فضربت الأرض بقدمها وقالت
في صوت متهدج :

«من هناك ؟ ادخلوا جميعاً وامرحوا . . أقصد من يريد أن يدخل . .
سوف أسمح للجميع بالدخول ما عدا جورج . . لن أسمح له بالدخول !
لقد رفض أن يأكل الشرائح التي أعدتها له ، بل رفضها قطعاً !» .

ثم سقطت بقوة على الصندوق الجديد وبدأت تضرب القفل
الموسيقى برأسها .

وعاد كل شيء ، بعد ذلك ، إلى مجراه الطبيعي في المسكن ،
فساده النظام والأدب ، وعادت شوركا إلى العمل خادمة ، وجاء رجال
كثيرون أثناء الشتاء يطلبون يدها ، ولكنها رفضت الزواج من أيهم ، إذ
كانت تنتظر رجلاً هادئاً طيب القلب ، وكان هؤلاء جميعاً رجالاً
جسورين اجتذبهم ما جمعته من أشياء .

وإزداد نحولها كثيراً في أواخر الشتاء ، واعتادت إرتداء فستان من
الصوف الأسود زاد من حسن مظهرها . وكان في الجراج الملحق بفناء

المبنى سائق خصوصى اسمه إيفان ، يتسم بالهدوء والطيبة والدمائة ،
وكانت شوركا قد شغفته حباً ، ثم لم تلبث أن بادلته حبه عندما حل
الربيع .

كان الجو صحواً ، وما كاد مساعد المأذون ينتهى من كلمات التهئة
المقتضبة التى أصغيا إليها بصبر نافذ ، حتى انطلق العروسان الشابان
من المكتب إلى الطريق العام .

وتساءل الشاب إيفان فى خجل وهو يخالس شوركا النظر « ترى إلى
أين نمضى الآن ؟ » .

وزادت شوركا من إلتصاقها به ، ودغدغت أذنه الحمراء بغصن
الليلاك القاهر ، وهمست بانفعال اتسعت له فتحتا أنفها قائلة :

« إلى السوق ! لشراء الأشياء ! وهل هناك سوى السوق ؟ » . وفجأة
بدت عيناها كبيرة ومستديرة .

١٨ - الحافلة الليلية إلى أتلانتا

برندان جيل

ما أن دخلت الفتاة الحافلة حتى ود هارى « لو جلست إلى جواره .
كان ثمرة مقعدان آخران خاليان ، يجاور أحدهما رجلاً عجوزاً كان قد
استغرق فى النوم ، فعلاً ، بصوت عال ودون أناقة ، وخيط أصفر من
التبغ يتدفق من شفثيه . ويجاور الآخر امرأة فى منتصف العمر ، كان
طفلها - الحائر بين الرضاعة والبكاء - يحمل على ذقنه بقعة من اللبن
تشبه ، على نحو غريب ، تلك التى تميز الرجل العجوز . حدق هارى
فى الفتاة ، إذ راحت تشق طريقها عبر الممر ، وهو يركز بصره على
وجهها الهادئ ، ويكرر لنفسه : «أجلسى هنا . أجلسى هنا» . ولم
يندهش عندما جلست بجواره ، وإنما شعر براحة غريبة . كان قد ابتاع
عدة مجلات من المحطة الدميمة ، وهو ينظر وصول الحافلة من جاكسون
وقد أمسك بها ، على شكل مروحة ، إزاء الفتاة قائلاً :

- أتودين أن تلقى نظرة على إحداها؟»

فقال دون أن تنظر إليه : «لا أظن ، شكراً» .

- فتظاهر بالنظر من النافذة إلى الظلمة المترامية، ولكنه احتفظ في ركن من عينه بصورة يدي الفتاة ، وقد انطوت بأناقة على حجرها . وقال :
- «لقد تأخرت الحافلة ، أليس كذلك ؟» .
 - «إنها تتأخر دائماً تقريباً» .
 - «أستقلينها كثيراً ؟» .
 - «كلا» .

وتساءل هارى عما إذا كانت أصول اللياقة فى هذه المناسبة تتطلب منه أن يسرّ إليها بالمزيد . وقال : «إنى ذاهب إلى أتلاننا . ثم على أن آخذ الحافلة إلى سبارتنبرج . لقد انتهت إجازتى ، والسبيل الوحيد لكى أعود إلى المعسكر فى الوقت المحدد هو أن أقفز ما بين حافلتين . لقد كنت آخذ القطارات قبل الآن ، ولكن علىّ هذه المرة أن أقفز بين حافلتين» . وظلت الفتاة صامتة ، لا تتحول عنه ولا يصدر عنها ما يدل على أنها سمعته يتكلم . وسألها هارى : «لا أظن أنك ذاهبة حتى أتلاننا ؟» .

- «لا ، لا أظن، إنى ذاهبة إلى المدرسة - إلى شئٍ شبيه بالمدرسة» .
- استدار سائق الحافلة - وهو شاب بدين أشقر الشعر - فى مقعده ، وأدار الأنوار الأمامية . وانتظر هارى إلى أن هدأت أصوات السعال الأولى للآلة على شكل حلبة ثابتة ، ثم قال :

- إنى لم أذهب إلى هذه البلدة من قبل . أتعيشين هنا ؟
- نعم .
- «حسناً . يخيل إلى أنها ما كانت لتكون سيئة ، لو كان المرء قد نشأ فيها . تعرفين ما أعنيه ؟ لست أستطيع أن أهضم هذه البلدان الجنوبية ، فهي كلها متشابهة فى نظرى» . وتردد هارى «خبرنى . ألم أرك فى المحطة ؟ ألم تكونى تودعين أهلك ؟» . فأومأت الفتاة برأسها .

كانت أم الفتاة تبكى ، وأبوها ينقل ثقله من قدم إلى أخرى ويدير قبعة سوداء ناعمة بين يديه ، وكان هارى قد نسى المشهد ، كلية ، قبل أن يتحدث عنه . كان ينتظر فى الصف ، كى يبتاع تذكرة إلى أتلانتا ، ولم يكن قد أولى الفتاة وأباها وأمها من الاهتمام قدر ما أولاه إلى الزوج المتجمعين فى قسم الزنوج من المحطة ، وإلى الوليد الرضيع الذى لاح أنه ليس بمستطاعه أن يبقى فمه مطبقاً على ثدى أمه : وقال : «لابد أنك مسافرة ، مدة طويلة» .

فقالت الفتاة : «نعم» ، واستدارت نحوه ، وعيناها قريبتان من عينيه إلى الحد الذى أمكنه معه أن يرى أين كانت نقط صغيرة من الأصفر والأخضر تتناثر على حدقتيهما الزرقاوين . وقالت : «كأنى هاربة . إنى ذاهبة إلى جورجيا كى أدرس التمريض . ولكنك لو سمعت ماما وبابا

يتحدثان ، لظننت أنى مسافرة إلى أطراف الأرض . هذا لأنهما متعودان على أن أكون بجوارهما» .

فقال هارى : «أجل ، أعرف هذا . فوالداى من نفس النوع» .

«ولكنى كنت أرغب دائماً فى أن أكون نافعة لأحد ، خاصة الآن مع الحرب وبعدها ، عندما يبدأ الجرحى فى العودة إلى الوطن» . وعضت شفيتها «أظن أنه لا يجمل لى أن أحدثك على هذا النحو» . قالتها وهى تتحول جانباً : «أيمكننى أن ألقى نظرة على إحدى مجلاتك ، لو سمحت ؟» .

«بالتأكيد . لقد طلبت إليك ذلك . أما فعلت ؟» .

وفكر هارى قائلاً : إنها ليست سوى طفلة ، وأراهن أنها تتخيلنى ذئباً لا يكف ولهذا فهى خائفة من التحدث إلىّ . بحق الشيطان ، لن أع ذلك يجرح شعورى . ومنحته فكرة كونه ذئباً سروراً غير متوقع ، ال ذقنه وأزاح خصلة من الشعر يميناه .

أختارت الفتاة مجلة على غلافها اللامع صورة فوتوغرافية لبيتى نرابل ، تبين أساساً أسنانها وصدراها وساقها . وشرعت الفتاة تقلب صفحات بإبهامها ولكن كان من الواضح لهارى أنها لم تقرأ شيئاً . دارت الحافلة مبتعدة عن المنطقة الملطخة والموحلة ، وراء المحطة ، وسارت فى شارع البلدة الرئيسى . كانت الأنوار الكهربائية أو مصابيح

الكيروسين قد أضيئت في أغلب الدور ، ولكن أحداً لم يأبه ، بعد ، لأن يسدل الستائر على النوافذ . وفكر هارى قائلاً : ربما كان هذا هو نوع البلدة التي لا يأبه فيها أحد ، حتى في الشتاء ، لإسدال الستائر . وكان بوسعه أن ينظر إلى داخل الغرف الصغيرة العارية ، ويرى الرجال والنساء متحلقين حول موائد مطابخهم أو غرف الطعام ، يأكلون ويشربون أو يتحدثون فحسب . وقال : «غريب أن يفكر المرء في كل هؤلاء الناس ، لطفاء ناعمين بالدفء في دورهم ، ونحن نركب مبتعدين عنهم في حافلة قديمة مرتجة ، لا نعود» .

فقالت الفتاة بحدة : «لماذا قلت ذلك ؟ ما الذى تعنيه ؟» .

«لا أعنى إلا أنى لن أعود . هذه أول زيارة لى لمسيبى ، ولكنى أظن أنه لن يكون ثمة ما يدعونى إلى أن أزورها مرة أخرى» .

وكأنما كان جسدها يبذل جهداً ضد إرادتها ، فقد مالت الفتاة إلى الأمام وجانباً فوق ركبتى هارى ، وهى تحديق من النافذة . كانت شفتاها منفرجتين ، ويدها على الصليب الذهبى الصغير المدلى على فتحة ثوبها على شكل ٧ . ولاحظ هارى أن رائحة جسدها لم تكن رائحة عطر وإنما صابون ، ما هو واضح . وقالت : «سنمر بيتى الآن . أقول : سنمر بيتى !» .

فتناقلت الحافلة درجة بسيطة ، ثم اهتزت شرقاً تاركة البلدة . وفى الضواحي ، حيث طوار أسفلتى محطم يصل إلى الحقول التى فى لون الآجر الأحمر ، أشارت الفتاة إلى كوخ نصف مختم وراء صف من الأشجار . وقالت : «ها هو ذا . ذاك بيتى» .

فقال هارى : «لست أرى أى أنوار» .

فهزت الفتاة رأسها : «لابد أنهما فى البلدة ، وذاهبان إلي الخيالة . إنهما لم يكونا عائدين إلى البيت للعشاء الليلة ، لقد قالت أمى إنها لا تحمّل العودة إلى البيت للعشاء الليلة» .

وإذ جن الظلام ، صار الهواء داخل الحافلة بارداً . وأدار السائق الشاب البدين سخاناً لم يصدر عنه إلا رائحة جازولين حادة . وكان هارى يتوقع أن تكون الحافلة كالقطار - حسنة الإضاءة - حتى يمكنه أن يقرأ مجلاته ، غير أنه فيما عدا دخول بلدة ، أو التوقف عند محطة بتروى على شكل كوخ ، على طول الطريق ، كانت الأنوار محتجبة . وفى ذلك الجزء من الحافلة ، حيث كان هارى والفتاة يجلسان ، لم يكن هنا سوى اللمعة الضعيفة ، منعكسة عن السقف ، للنورين الصغيرين على لوحة الأدوات كان البرد والظلمة قد قربا هارى والفتاة فى مقاعدهما فاقتربا فى الحق إلى الحد الذى تضامت معه أذرعهما وركبهما . وعندما نقلت الفتاة رجليها ، غير هارى وضعه كى يريحها . لم تكن الفتاة قد تحدثت، لمدة ساعة تقريباً . وعلى قدر علم هارى ، ربما كانت نائمة .

ولكنه عندما كان - بين الحين والحين - يتحول ليدرس وجهها ، كانت تفتح عينيها وتحديق أمامها في الظلام .

ظل الرجل العجوز - الذى نام عند دخول الحافلة المحطة - يشخر ويسعل بين الظلال . بينما الوليد الرضيع - بدلاً من البكاء - يخرج صوت مص مستمر غير راض ، بشفتيه المذمومتين ، وكان أثنان صعدا إلى الحافلة أثناء وقوفها بمحطة سابقة قد أدخلت كل منهم إلى حضن صاحبه فى المقعدين وراء هارى والفتاة . وكل دقائق قليلة ، يتمتم أحدهما بكلمة أو كلمتين ، مغفياً ، ثم ينتهى الكلام بقبلة . ولكن هارى لم يتمكن من أن يعرف ما إذا كانت الفتاة إلى جواره منتبهة إلى الرجل العجوز ، أو الوليد ، أو حتى هذين الاثنين . وإذا تحركت الحافلة متثاقلة ، فى الليل ، وأنوارها الأمامية تطوى الأميال المنبسطة التى تمثل مسيسبى وألاباما ثم جورجيا بعد قليل ، ازداد البرد ، وانزلق هارى فى مقعده أسفل فأسفل . ظل جسده متحولاً عن النافذة ، ووجهه نحو الفتاة ، بينما هى - إما نائمة أو نصف صاحبة - حولت وجهها إليه أيضاً . وذات مرة سقطت سترتها عن كتفها ، فمد هارى يده ، وأحاط بها ذقنها وذلك الخط الناعم من شعرها إزاء وجنتيها . وهمست له بشئ ، ولكنه لم يتمكن من سماعه ، فخمن أنها تحلم .

لم يكد ينام حتى أيقظه صوت الحافلة وهى تتوقف ، أو غياب الصوت بعد أن توقفت الحافلة . ورأى أنهما قد وصلا إلى محطة

أخرى ، جناح محطة صغير ، ألحقت به حافلة طعام . كانت أشجار الصنوبر تمتد على كلا جانبي الطريق ، والسماء من فوقهما بلا نجوم . شعر هارى بتصلب ، وبأنه قلق فجأة وعلى نحو مكدر ، كأنه بحاجة إلى مسيرة عشرة أو اثني عشر ميلا لكي يزيل عن رجليه تقلصهما . ورأى على النور الوامض للعلامة التي تعلو حافلة الطعام - أن الفتاة مسيقظة . فقال : « ما رأيك في أن نخرج ونتناول فنجاناً من القهوة ؟ » .

ولدهشته قالت الفتاة : « لا مانع » .

وإذ نهضا قائمين قالت المرأة التي في المقعد وراءهما «إدى ، نشدتك الله ! بوسع هؤلاء الناس أن يرونا» . فسب الرجل ، بحدة ، تجاه ذلك ، وقهقهت المرأة . وشعر هارى بحمرة الخجل ، إذ سار في الممشى نحو الباب . تبع الفتاة عبر الطين الخشن لجانب الطريق وداخل حافلة الطعام . لم يكن هناك ركاب آخرون قد عنوا بالنزول من الحافلة ، وكانت حافلة الطعام فارغة ، باستثناء الساقى ، وهو عجوز بلا أسنان ، وسائق الحافلة . كان السائق يحتسى فنجاناً من القهوة . وعندما دخل هارى والفتاة كشر لهما عن أنيابه في المرأة المركبة وراء النضد ، دون أن يرفع فمه عن حافة الفنجان . وسألها : «كيف حالكما يا أولاد ؟» .

وكان هارى قد أجاب : «الحمد لله» قبل أن يخمن ما يدور برأس السائق الشاب البدين . ثم قال للسائق بسرعة : فنجانين من القهوة ، من فضلك ، وبعض هذه الكعكات المحلاة والمقلية بالدهن» .

فقال العجوز ، هو يسفر عن لثته «نعم ياسيدى» .

وقالت الفتاة : «لا حاجة بى إلى الكعكات . أشكرك» .

ورأى هارى أنها راضية لأنه طلبها لها ، فقال : «بل تأخذينها بالتأكيد . اثنتان من هذه الكعكات اللطيفة الكبيرة المحلاة بالسكر» . وابتسمت الفتاة لأول مرة ، فحنى هارى رأسه بحماقة وسعادة ، على سبيل الإجابة . وفكر أنه لم يسبق له قط أن رأى مثل هذه الابتسامة الحلوة . كانت أسنانها صغيرة مستوية . وإذا رفعت ابتسامتها جانبي فمها ، لاحت وجنتاها أكثر استدارة واصطبأغاً باللون الوردى مما كانت عليه حقيقة .

وقال العجوز : «هاك . الكعكات والقهوة» .

• وإذا راحا يأكلان كعكاتهما - التى لم تكن طازجة - ويحتسيان قهوتهما الساخنة - وإن تكن مرة - أخذ هارى يدرس وجه الفتاة فى المرأة وراء الغلة المكدسة وزجاجات الدكتور بابير . كانت تقلقه فكرة كاد يستحيل صياغتها فى كلمات ، ولكنه كان يعرف أنه إذا مكث أطول مما ينبغى ، فسيدعوه السائق إلى الحافلة . وكان يريد أن يقول : «من الغريب أننا هنا على هذا النحو . كأننا زوج وزوجة . نحن لم نير حتى أحدنا الآخر من قبل !» . ومن المحتمل أن يكون رأيه قد استقر على أن الفتاة خليقة أن تكف عن الابتسام ، لو أنه قال ذلك . ستخشى - مرة

أخرى - ألا يكون سوى ذئب . وأخيراً ، إذ غامر بالافصاح عن جزء من أفكاره قال : «من الغريب أننا هنا على هذا النحو» .

ولبهجة هارى قالت الفتاة : «كأننا .. نأثنا يعرف أحدنا الآخر منذ زمن طويل» .

«ونحن حتى لم ير أحدنا الآخر من قبل» .

فأومأت الفتاة برأسها : «وأظن أننا لن يرى أحدنا الآخر مرة أخرى قط» .

فقال هارى : «كلا ، بل سنفعل ، ينبغي أن نفعل .. عليك أن تكتبى لى عندما أصل المعسكر ، وعندما أحصل على إجازة مرة أخرى ، فربما ...» .

فقاطعت الفتاة : «لن نفعل ، وليس بمقدورنا أن نتكاتب . فأنت لا تعرف أين ستكون ، ولا تعرف ما قد يحدث . بل إننا لا يعرف أحدنا اسم صاحبه» .

«هذه مسألة سهلة» .

فانخفض صوت الفتاة حتى أصبح همساً «لا ينبغي أن نعرفها . إذ لم يرد لنا أن يميل أحدنا إلى الآخر إلى هذه الدرجة . وأن نلتقى على هذا النحو» .

فبدأ هارى يتلعثم ، كما كان يفعل دائماً حين يفعل وقال : «لست أفهم . ماذا تظنينى ؟ ذئب ؟ وهل هذا سبب كل كلامك هذا ؟ أنت غاضبة منى لأنك تظنين أنى أحاول اصطياذك ؟» .

فقالت الفتاة : «أوه كلا ، كلا بطبيعة الحال . أوه ، كلا . ليس الأمر كذلك» .

ولاحت خائفة ومرتبكة من رد الفعل الذى اثارته فى هارى ، وارتفع الصليب الذهبى الصغير وتوهج فى الضياء . ومدت يدها كى تلمس كفه ، ولكن السائق الشاب البدين دار فى تلك اللحظة - فى مقعده ، وسار بطل حافلة الطعام ، كى يتحدث إليهما : «هى ، ياطاثرى الحب الصغيرين !» هكذا قال . «علينا أن ننقل هذا الكوم القديم من الخردة إلى أتلاتنا فى وقت ما من هذا الأسبوع كما تعرفان ! بديهى أنكما إذا فضلتما أن تبقىا هنا فى هذا العشر الصغير الدافئ ، فأظن أن بوسع بوب أن يجد لكما مكاناً للنوم . أليس كذلك يابوب ؟» .

فتجمد وجه الرجل العجوز وقال : «هذه حافلة طعام محترمة ، ولا مكان فيها للنوم» .

فضحك السائق الشاب البدين وضرب النضد براحتته : «هذا حسن يابوب . قل لهما هذا . حسناً ، هيا بنا ياطاثرى الحب . لستما أول من يتعين عليهما أن يقنعا بحافلة» .

وشعر هارى بالرغبة فى أن يسدد قبضته إلى وجه السائق الناعم الوردى ، ولكن بعد فوات الأوان ، فدائماً لم يكن ثمة جدوى تقريباً من إخراس امرئ بصكه بعد حدوث الضرر . وهمست له الفتاة : «لا تهتم ، أرجوك لا تهتم» . وتبعت السائق خارجة من حافلة الطعام ، وصاعدة الدرجتين العاليتين إلى الحافلة . بينما دفع هارى للرجل العجوز ثمن القهوة والكعكات . وعندما صفق السائق باب الحافلة بشدة وراء هارى ، وتمتم له بشئ ، لم يأبه هارى بأن يسأله عما قاله ، أو حتى أن يقول له : أذهب إلى الجحيم . كان كل ما يريده أن يتحدث إلى الفتاة .

ولما كانت الفتاة ترقد مكومة على المقعد الداخلى ، فقد تعين على هارى أن يتحرك من فوقها لكي يصل إلى مقعد النافذة . ولمس إحدى يديها ، إذ كان يفعل ذلك ، فوجدتها باردة . ولاءم بين نفسه ووضعها - كملعتين ، هكذا فكرة وهو يسترجع عبارة كان هو وأخوه قد استخدمهاها ، وهما أطفال . وسحب معطف الجيش الثقيل على كليهما . رقداً وجهاً لوجه فى الظلام ، صامتين ، بينما الحافلة تكتسب سرعة . وذات مرة ، مرت عربة بالحافلة ، وعلى لمعة أنوارها الأمامية رأى هارى الفتاة تحديق فيه . وقال : «لم أكن متأكداً من أنك يقظة» .

«ليس بمستطاعى أن أنام» .

وتساءل هارى عما إذا كان المراد بها لومه . وقال : «آسف فقد انفعلت» .

«إنها غلطتى» .

«كلا . لقد كانت غلطتى» .

وشعر هارى أنه نصف دائخ بالسرور من دفئهما وقرب كل منهما من صاحبه . كان يريد أن يكون كل شئ غلطته هو . وقال : «من المؤكد إنك تبدين حلوة» .

فضحكت الفتاة بنعومة : «إنك لا تستطيع حتى أن ترانى» .

«بل أستطيع . . أستطيع أن أرى بعض الشئ» . ومد هارى يده فلمس طرف أنفها بإصبعه . «أستطيع أن أرى أنفك ووجنتيك وذقنك» . ونقر على وجنتيها وذقنها والصليب الذهبى فما خط حلقها الأبيض الواهن ، «يسرنى أنك لست نائمة أو غاضبة أو أى شئ من هذا القبيل» . قالها هارى وهو يتساءل عما جعله يقول مثل هذا الهراء .

وقالت الفتاة: «ليس بنمستطاعى أن أنام . مفروض أن أنزل بعد قليل» .

فشعر هارى بنبض معصميه يدق معترضاً ، وقال : «كلا ، كلا . عليك أن تظلى فى الحافلة حتى نصل إلى أتلاتنا» .

فهزت رأسها وقالت : «هذا أشبه بالكتابة . علينا أن نتصرف كما لو لم نكن قد التقينا البتة» . ثم رفعت يدها ولمست جبهته وأنفه وذقنه

. وقالت : «وأنا أيضاً أستطيع أن أراك قليلاً . إنك لطيف . ولكن على أن أهبط بعد قليل ، بعد قليل حقاً» .

وناداهما السائق عبر الظلام : «هى ، ياطاىرى الحب . انهضوا والمعاً!» . ونخشى هارى أن يوقظ السائق كل من فى الحافلة ، ولكن الرجل العجوز استمر يشخر ، وظل الوليد يصدر صوت مصه الثابت . وحتى الاثنان الجالسان وراءه لم يتحركا . «أتريدين أن أتوقف عند البوابة ، أم تريدين أن تذهبي إلى البلدة ؟» .

فقالت الفتاة رابطة الجأش : «أريدك أن تتوقف لدى البوابة . فثمة دائماً من هو هنالك» .

فقال هارى : «لا يمكن أن تذهبي» .

«على أن أذهب» .

«لا يمكن أن تذهبي»

«أريد أن أذهب»

«خبريني بأسمك» .

فلم تجبه الفتاة وإذا انزلقت من تحت معطفه ، وقفت فى الممشى . وحاول هارى أن ينهض بدوره ولكنها ردت برفق إلى مقعده . وهمست له «أبقى فى مكانك» . ولدهشته شعر ، من خلال الظلال ، بدنو وجسها

ودفع ورائحة جلدها وشعرها . وقبلت وجنته ثم بعد لحظة فمه ،
ودست شيئاً فى يده . وفى اللحظة التالية كانت تسير فى الممشى نحو
الباب . ووسع هارى أن يسمع السائق الشاب البدين وهو يقول :
«حسناً. أظن أن صديقك لا يستطيع أن يتبعك إلى هناك . وبعد ذلك .
إذ أبطأت الحافلة ومشت على الحصباء الحصناء نحو جانب الطريق
«حسناً ، يا أختى . انزلى» .

وضغط هارى وجهه على النافذة ، إذ انفتح باب الحافلة وأغلق .
وفى موجة الأنوار الأمامية ، الأشبه بضوء القمر ، رأى عمودين حجريين
عاليين ، بينهما قوس حديدى للزينة . وعلى شكل لفات حديدية داخل
القوس رأى كلمات مستشفي القديسة آن» وتاريخها «١٨٩٦» . وفكر
هارى : على الأقل عرفت العنوان ، وعرفت مكانها . وإذا اهتزت الحافلة
راجعة إلى منتصف الطريق ، لمح هارى الفتاة تسير نحو البوابة . فدق
بمفاصل أصابعه على النافذة ، وهو يشعر بجلد أصابعه بتوتر ثم يتشقق
وينزف . ولكن الفتاة لم تستدر . ولم تكد تصل إلى الممشى داخل
البوابة ، حتى ابتلعها الظلام .

تحسس هارى الشئ الذى اسقطته الفتاة فى يسراه . ورغم أنه لم
يتمكن من رؤيته ، فقد خمن أنه الصليب الذى كانت تلبسه حول عنقها .
وأداره بين أصابعه ولشمه بفمه وكان على وشك أن يضعه فى جيب
صداره عندما استوقفه أما ضعيف مستميت . فنهض قائماً وسار ، دون

ثبات ، إلى الامام . وقال له السائق « لا تخلع قميصك أيها الفتى ، فلن نصل إلى أتلانتا قبل ساعات . والحق أننا ، فى هذه العلبة الصفيح ، قد نستغرق سنوات» .

فقال هارى : «إنما أريد أن أرى شيئاً» . وإذ ولى السائق ظهره ، رفع الصليب نحو أحد الأنوار على لوحة الأدوات . وبعد لحظة تبين - بخط دقيق على ظهر الصليب - اسم فتاة . وشعر بأن عينيه تطرفان سروراً . لقد أعطته اسمها ، فى نهاية المطاف . وتظاهرت بأنه لا يجمل بهما أن يفكر أحدهما فى صاحبه مرة أخرى ، ولكنها أعطته اسمها . لابد أنها كانت تريد منه أن يكتب لها . وقال للسائق : «اسمع . هل معك قلم رصاص؟» .

فقال السائق وهو يسحب عتياً أصفر من فوق أذنه : «بالتأكيد . ولكنك لا تستطيع أن تكتب فى هذا المركب» .

فقال هارى : «أستطيع أن أحاول» . وجثم على الدرجة العليا من الحافلة ، وظهره إزاء الباب ، وأخذ من أحد جيوبه مظروفاً ملطخاً . وسواه على ركبته ، وبالقلم الرصاص المفلول ، وهو يرتفع وينخفض دون توقع تحت أصابعه ، كتب اسم الفتاة واسم المستشفى واسم البلدة التى كانوا يقتربون منها . وعندئذ ، على نحو طفولى ، ولكن بعناية لا حد لها ، كتب «عزيزتى» .

الفهرس

الصفحة	المترجم	المؤلف	عنوان القصة
١٧-١١	رشاد رشدى	جى دى موباسان	١ - فى ضوء القمر
٣١-١٨	ماهر شفيق فريد	جى دى موباسان	٢ - تـوان
٤٧-٣٢	رشاد رشدى	أنطون تشيخوف	٣ - المدرسة
٥٤-٤٨	ماهر شفيق فريد	أنطون تشيخوف	٤ - كائن ضئيل
٦٥-٥٥	رشاد رشدى	أنطون تشيخوف	٥ - الشقاء
٧١-٦٦	محمد القصاص	أنطون تشيخوف	٦ - موت موظف
٧٩-٧٢	ماهر شفيق فريد	أوسكار وايلد	٧ - العملاق الأنانى
٨٥-٨٠	ماهر شفيق فريد	هـ هـ مونرو (ساكى)	٨ - النافذة المفتوحة
٩٢-٨٦	رشاد رشدى	لويجي بير اندللو	٩ - الحرب
٩٧-٩٤	محمد عنانى	فرجينيا وولف	١٠ - بيت مسكون
١٠٦-٩٨	رشاد رشدى	أرنست همنجواى	١١ - عصفور كناريا لواحد
١١١-١٠٧	رشاد رشدى	أرنست همنجواى	١٢ - الرجل العجوز عند الجسر
١٣٤-١١٢	رشاد رشدى	كاثرين مانسفيلد	١٣ - سعادة
١٤١-١٣٥	محمد عنانى	لانستون هيوز	١٤ - شكراً يا مدام
١٥١-١٤٢	محمد عنانى	جراتسيا ديليدا	١٥ - الأرناب البرية
١٥٩-١٥٢	ماهر شفيق فريد	بول باولز	١٦ - الضبع
١٧٠-١٦٠	محمد عنانى	فالتاين كاتاييف	١٧ - الأشياء
١٨٦-١٧١	ماهر شفيق فريد	برندان جيل	١٨ - الحافلة الليلية إلى أتلاتنا

LS.B.N $\frac{2000 / 10337}{977-01-6747-9}$ رقم الإيداع



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» ..
ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى
كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى
أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام.
واستجبنا لهذا المطالب الجماهيرى العزيز إيماناً منا
بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى
إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها
الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى
الكتاب مصدراً هاماً وخالداً للثقافة فى زمن الإبهارات
التكنولوجية المعاصرة.. وهما نحن نحتفل ببدء العام
السابع من عمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠)
عنواناً فى أكثر من «٢٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة
المصرية فى عيونها وعقولها زاداً وتراثاً لا يبلى من أجل
حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن
ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

١٥٠ قرشاً

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

